مراحل تطور البحث العلمي في الفكر الإسلامي
(دراسة تأصيلية ناقدة)

يحيى أحمد حسين المرهبي
قسم العلوم التربوية والنفسية-كلية التربية والعلوم التطبيقية والآداب ـ جامعة عمران.
DOI: https://doi.org/10.56807/buj.v4i2.297

الملخص

هدف البحث إلى التعرف على طبيعة العلاقة بين البحث العلمي والفكر الإسلامي، ومن ثَمَّ التعرف على مراحل تطور البحث العلمي في الفكر الإسلامي، والتي قسمت إلى خمس مراحل هي: النبوة والخلافة الراشدة، الدولة الأموية، الدولة العباسية، الدولة العثمانية، العصر الحديث، وقد قام الباحث بدراسة هذه المراحل من خلال دراسة تأصيلية ناقدة، ولتحقيق هذا الهدف استخدم الباحث المنهج الوصفي والمنهج التحليلي إضافة إلى المنهج التاريخي المقارن، بغرض الوصول إلى الأهداف التي يسعى البحث لتحقيقها. وطبيعة البحث العلمي، تتمثل في أن الإنسان كلما اقتحم موقعًا، أو حل مشكلة، أو اكتشف ظاهرة، وظن أنه بهذا قد أشبع نهمه (رغبته)، تبين له أن بابًا آخر قد ظهر أمامه، يحتاج إلى جهد آخر لاقتحامه بحثًا عن جديد، وصدق الله حين قال: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: 85]. والفكر الإسلامي في علاقته بالبحث العلمي قد أرسى معالم وقواعد المناهج العلمية؛ لمختلف العلوم الإنسانية النظرية منها، والتطبيقية، وتم ذلك، ضمن إضافات متعددة تمت على يده، ومن خلالها صقلت تلك المناهج العلمية صقلا، وكان للفكر الإسلامي دون غيره الأحقية في تبنيها، وبحيث أصبحت تلك المناهج تنسب إليه نشأة، وصقلا، وتطبيقا. وإنه لمن الخطأ، أن يعمد الباحثون والمفكرون المسلمون إلى إهمال مناهج البحث العلمي كما هي في الفكر الإسلامي، وإهمال تطبيقاتها في حياتهم الفكرية الفردية والاجتماعية، وبالتالي السير وراء المدارس الوضعية التي تنكر الوحي، وتنكر الرسالات والنبوات، وترفض التعامل مع الغيب ولا تؤمن إلا بعالم الشهادة. والفكر الإسلامي يرى أنه ما من وسيلة صالحة من وسائل البحث العلمي وطلب المعرفة إلا والعقل المسلم مكلف باستخدامها، والإفادة منها في توليد المعرفة والقدرة على الأداء، تستوي في ذلك الوسائل المادية، والمعنوية والكمية والكيفية، كما تستوي في ذلك الوسائل الاستقرائية والاستنباطية والعلمية والتجريبية، والتنظيرية والتحليلية. وقد توصل الباحث إلى عدد من النتائج والتوصيات التي ضمنها نهاية هذا البحث.

الكلمات المفتاحية: مراحل تطور، البحث العلمي، الفكر الإسلامي، تأصيل، نقد.

Abstract

This study aims at identifying the nature of the relationship between scientific researches and Islamic thought, and then to identify the stages of development of scientific research in Islamic thought which is divided into five stages: Prophecy, the Rightly Guided Caliphate, the Umayyad State, the Abbasid State, the Ottoman State, and the Modern Era. The researcher has studied these stages critically. To achieve this goal, the researcher used the descriptive and analytical method, in addition to the comparative historical method. The nature of scientific research is that every time a person solves a problem, or discovers a phenomenon, he thinks that by this he has satisfied his greed (desire). However, it becomes clear to him that another door has appeared in front of him, and he needs another effort to break into it in search of something new. This is true with what Allah (God) said: {And you are not given of knowledge, but a little} [Al-Isra: 85]. Islamic thought, in its relationship to scientific research, has laid down the parameters and rules of scientific curricula for various human sciences, both theoretical and applied. This happened among several additions, through which these scientific methods were refined, and Islamic thought alone has the right to adopt them. Therefore, these curricula become attributed to Islamic thought in origin, refinement, and application. It is wrong for Muslim researchers and thinkers to neglect scientific research methods as they are in Islamic thought, and neglect their applications in their individual and social intellectual lives following the man-made schools that deny revelation, messages, prophecies, and refuse to deal with the unseen and only believe in science. Islamic thought states that there is no valid means of scientific research and seeking knowledge except that the Muslim mind is charged with using it and benefiting from it in generating knowledge and the ability to perform. The moral, quantitative and qualitative means are equal in that, as are inductive, deductive, scientific, empirical, theoretical and analytical means. The researcher reached a number of results and recommendations, which are included at the end of this research.

***Keywords**: Stages of development, Scientific research, Islamic thought, Originality, Criticism.*

المقدمة:

البحث العلمي الأصيل صار اليوم فريضة غائبة، وهو عادة ما يكون وليد مفارقات أولية، يدركها الباحث من واقع معايشة حقل معرفي معين بكيفية خاصة، يمكن أن تؤدي هذه المفارقات الأولية إلى تحويل (المشاهدة) العلمية إلى شهادة (معرفية)، تبدأ بالتساؤل وتنتهي عبر الاستقراء والتحليل، فالاستدلال والترجيح والتصويب والتعديل، إلى الإقرار فيما ينبغي أن يكون عليه الأمر، في ضوء الاستعانة بالممكن لتجاوز الكائن، وهنا تكمن الإضافة الحقيقة للبحث، الذي يضع أيدينا في مقدمته الرصينة على أزمة حقل، ومأزق عقل، ويقودنا من خلال الوجيز المفيد إلى تشخيص المصادر والأسباب ومعرفة الظواهر والأعراض بعد ربطها بأسبابها، ويضع العقل المسلم دينا أو ثقافة أمام مسؤولياته الكاملة.

إنها المسؤولية التي أشار إليها (بن نبي، 1969م، 40 - 41) وهو يتحدث عن المناخ الجديد للفكر الإسلامي، ذلك الفكر الذي يضع سُلَّماً، يتسلقه الفرد، وهو يدلي بعلمه لمن دونه درجة، ويطلب العلم ممن فوقه، وهكذا ينطلق تيار العرفان في الاتجاهين ومن أسفل إلى أعلى أحياناً. وتلك هي طبيعة البحث العلمي، كلما اقتحم الإنسان موقعًا، وظن أنه بهذا قد أشبع نهمه، ويأمل أن يشبع نهم القراء، تبين له أن بابًا آخر قد ظهر أمامه يحتاج إلى جهد آخر لاقتحامه بحثًا عن جديد، وصدق الله حين قال: {وَمَا أُوتِيتُم مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: 85].

إن ما يميز العلم عن سائر المعارف الأخرى هو المنهج وليس المحتوى المعرفي، وفي اللغة العربية يرادف العلم المعرفة، فنحن نقول: علم الشيء بمعنى عرفه، غير أن هذا الترادف بينهما لا يعني تساويهما في العمومية والخصائص، بل هناك تمايز بينهما؛ فالعلم ليس أي معرفة، وإنما هو معرفة من نوع خاص، تلتزم بشروط منطقية ومنهجية، فالعلم - فلسفيًا - هو الإدراك مطلقًا، سواء كان يقينيًا أو غير يقيني. وإذا كان العلم مرادفًا للمعرفة، فهو يتميز عنها بكونه مجموعة من المعارف التي تتصف بالوحدة والتعميم، وفق تعبير (بدوي، 2001م، 39).

والمنهج العلمي يقوم على الملاحظة المنظمة التي يتم فحصها بصورة دورية، ثم توضع نظرية لتفسير المعلومات التي نلاحظها، ومن ثم نستخلص القواعد والقوانين التي يمكن تحقيقها بمحاولة تطبيقها في تجارب مكررة حتى يتأكد ثبوتها فتصل إلى ما يسمى بالحقيقة العلمية اليقينية، فتكون عندئذ قانونًا كاشفًا لقانون الفطرة، أي لسنن الله في الكون. وإذا تأيَّدت انطبقت على القانون الطبيعي (الفطرة)، أما إذا تنافرت معها فهي لا تكون حقيقة ثابتة، بل تخضع للتغيير. وفي سياق تحديد الفكر الإسلامي وعلاقته بالبحث العلمي، ينبغي أنْ نَتَجنَّبَ القراءة التَّجزيئيَّةَ؛ ونعتمد القراءةَ التَّكامُليَّةَ؛ لأنَّ تاريخ الفكر الإسلاميِّ مُتَرابِطٌ بعضُه ببعضٍ، باعتبارهِ كُلّاً مُتَكامِلاً. ولن يكون ممكنا بناءُ تَصوُّرٍ واضحٍ للفكر الإسلام إلَّا عندما نقرأُ التَّراكُمَ الذي نملكه بشكلٍ فعَّالٍ ونفهَمه بشكلٍ صحيحٍ.

والمتأمل في قوله تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} [الإسراء: 36]، يرى الدقة المتناهية، والصرامة المنهجية العلمية في الفكر الإسلامي، من ناحية نهي الله للإنسان عن قول ما لا يعلم، أو عمله بما لا يعلم، أو تقليده للآخرين تقليدًا أعمى، وهو ما أشار إليه (الزمخشري، 1986م، 2/ 666) عند تفسيره لهذه الآية، فهو يرى أن المراد في هذه الآية: "النهي عن أن يقول الرجل ما لا يعلم، وأن يعمل بما لا يعلم، ويدخل فيه النهي عن التقليد دخولاً ظاهرًا، لأنه اتباع لما لا يعلم صحته من فساده".

وغاية البحوث العلمية كما لخصها البعض، تتمثل في: "اختراع معدوم، أو جمع متفرق، أو تكميل ناقص، أو تفصيل مجمل، أو تهذيب مطول، أو ترتيب مختلط، أو تعيين مبهم، أو تبيين خطأ"، (القاسمي، 2004م، 48). وهو ما أشار إليه حاجي خليفة في كتابه (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون) (خليفة، 2021، 1/ 106) إلى:" أن الغاية من طلب العلم والتأليف فيه ليس جمع المعلومات إلى بعضها واستظهارها فقط، بل الغاية هي الحصول على المَلَكَة العقلية التي بها يستطيع العالم أن يستنبط ويستخرج". وهو يقصد بهذا استنباط الجديد واستخراج المفيد.

والعلم لا يعرف الكلمة الأخيرة في مسألة من مسائله، وإنما حقائقه كلها إضافية موقوتة، لها قيمتها حتى يتكشف البحث عما يزيل هذه القيمة أو يغيرها. وفي ازدياد المعرفة للكون، والمراجعة لهذه المعرفة، والتعديل فيها دليل على نقص معرفة الإنسان وعجزه دائمًا. "فليس هناك حقائق نهائية قاطعة في العلم، ولا يقول العلم دائما الكلمة النهائية فيما يعرض له من قضايا علمية، وكل يوم نسمع بجديد في آفاق العلم وكم من النظريات العلمية التي كانت تدرَّس على أنها الكلمة النهائية في مجال ما؛ ثم تغيرت من أساسها مع تقدم العلم". (ضميرية، 2013م، 79).

على أنه ليس حتما في المنهج العلمي أن يكون الجديد نسخا للقديم، فمجال التجديد يتسع لكل إضافة، فقد تكون بالنسخ أو التعديل، وقد تكون كذلك بتصحيح الفهم لقديم لابسته شوائب دخيلة عليه، وتحرير مبادئ أسيئ فهمها أو أسيئ تطبيقها. بل إن المنهج يعتبر أن من التجديد أيضا، تناول نظرية متداولة ومبادئ قديمة، بمزيد بحث وتحقيق، يؤيدها

بأدلة لم تكن معروفة، ويدعمها بتجربة أو استقراء كانت في حاجة إليه (عليّ، 2021م، 313).

وتأتي أهمية البحث في المنظومة العلمية؛ من كون الإسلام قد أحل العلم مكانة بارزة، ورفع العلماء درجة عالية، حيث نجد ذلك واضحا أشد الوضوح في نصوص القرآن الكريم وفي السنة النبوية الشريفة، ثم في الترجمة العملية لتلك النصوص متمثلة بالجهد والإبداع الإسلامي عبر التاريخ، وفي المنهج العلمي الصارم الذي أنتهجه العلماء المسلمون وسلكوه في بحوثهم بكل أنواعها وصنوفها، حيث حملوا مشعل العلم وأضاءوا الطريق للبشرية، فكانوا هداة لها وقادة، يرتادون الخير، ويدعون إلى الفضيلة، ويرتقون بالإنسانية إلى مدارج الكمال، لأنهم كانوا كما قال عنهم ربهم: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران، 110].

ويرصد (خليل، 1991م، 47 - 60) التحولات التربوية والعلمية والإبداعية التي أحدثها الوحي في العقل المسلم في ثلاث نقلات أساسية:

الأولى: النقلة التصورية الاعتقادية: وتتضمن القيم التصورية، كالربانية والشمولية، والتوازن، والتوحيد، والحركية، والإيجابية، والواقعية... التي تداخلت مع بعضها وشكلت نسقًا فكريًا فريدًا.

الثانية: النقلة المعرفية: وتبدو في التحول المعرفي للعقل بمده بما يمكنه من التعامل مع الكون والعالم والوجود.

الثالثة: النقلة المنهجية: التي أتيح للعقل المسلم أن يتحقق بها، وأن يتشكل وفق مقولاتها ومعطياتها التي امتدت باتجاهات ثلاثة هي: السببية، والقانون التاريخي، ومنهج البحث الحسي (التجريبي).

وما من وسيلة صالحة من وسائل البحث العلمي وطلب المعرفة إلا والعقل المسلم مكلف باستخدامها والإفادة منها في توليد المعرفة والقدرة على الأداء، تستوي في ذلك الوسائل المادية، والمعنوية، والكمية والكيفية، كما تستوي في ذلك الوسائل الاستقرائية، والاستنباطية، والعلمية، والتجريبية، والتنظيرية، والتحليلية.

والواقع، أن الإسلام ما كان بإمكانه أن يقدم نفسه كقيمة مضافة، وكفتح فكري وأخلاقي جديد في تاريخ تسلسل الأديان، لولا ذلك التغيير العميق الذي أدخله على العديد من المفاهيم والقيم الكبرى، بدءًا من مفهوم الإنسان ككينونة، وانتهاء بمفهوم التعارف والمعاملة كنشاط إنساني. "والرسول صلى الله عليه وسلم أعد العقل الإسلامي للفتوحات العلمية كما أعد الجندي المسلم للفتوحات العسكرية". (الكيلاني، 1998م، 426).

وقد مضى على العلوم الإسلامية حينٌ من الدهر، كانت فيه للبحث العلمي أسس في النظر، وآليات في الاستدلال، وأسباب في الاشتغال العملي يشد بعضها برقاب بعض. لقد أطلق دافع الوحي الرباني وحاجات التطور الحضاري للمسلمين حركة هذا البحث في صورة تفاعلية تكاملية متداخلة متناغمة لم تتوقف طيلة عصور الاجتهاد: فالعلوم يصدر بعضها على أسس البعض ويبني عليه، ويستثمر بعضها آليات منهجية يقعدها البعض الآخر، ويوظف علماء باب ما من العلم نتائج انتهى إليها غيرهم في باب آخر.

ولا يمكن لأحد أن ينكر تلك المساهمات التي قدمها العلماء المسلمون في مجال البحث العلمي، إلا بنحوهم منحى المؤرخين الغربيين؛ الذين اختزلوا دور المسلمين التاريخي ومساهماتهم الهائلة في تطوير العلوم الطبيعية، وبنائها على أساس تجريبي يقوم على الملاحظة والاختبار، إلى دور الناقل لعلوم الإغريق الحافظ لها من الضياع إلى أن تسلمها الغرب ثانية وتابع مهمة التطوير العلمي. (علي، 2010م، 44). وفي هذا الاختزال ما فيه من تنكر لجهود الآخرين، ونسف للإضافات المهمة التي قدمها الباحثون المسلمون طوال فترة ازدهار الحضارة الإسلامية.

الدراسات السابقة:

وجد الباحث أثناء تجميعه للمادة العلمية لهذا البحث، كمًا كبيرا من البحوث والدراسات والمؤلفات التي تتحدث عن البحث العلمي وعن الفكر الإسلامي بصورة مستقلة، وفي مقدمة ذلك مئات المؤلفات عن مناهج البحث العلمي، كما وجد بعض البحوث والدراسات والمؤلفات التي جمعت بين البحث العلمي والفكر الإسلامي في اتجاهات متعددة ومتنوعة، وقد استطاع الباحث أن ينتقي بعضا من هذه البحوث والدراسات والمؤلفات ليضمنها دراساته السابقة، حيث قام باختيار بعضها نظرا لقربه وصلته ببحثه، وسيوردها على شكل مجموعتين: المجموعة الأولى: البحوث والدراسات، والمجموعة الثانية: الكتب المؤلفة، وسيوردها مرتبة من الأحدث إلى الأقدم، مع نبذة مختصرة عن كل بحث أو دراسة أو مؤلف.

فمن البحوث، بحث (العثماني، 2021م)، بعنوان: (منطلقات منهج البحث العلمي في التراث الإسلامي)، وقد اشتمل هذا البحث على ثلاثة مطالب: المطلب الأول من البحث: يحتوي على معالم مناهج البحث العلمي في الفكر الإسلامي بمصدريه: القرآن الكريم والسنة النبوية، ويتجلى ذلك بإرسائهما الأسس العلمية والمنهجية للبحث العلمي في التراث الإسلامي، والمطالب الثاني: يشير إلى مدى تأثير الثقافة اليونانية في مناهج البحث

العلمي في التراث الإسلامي، ويأتي المطلب الثالث ليشير إلى: حقبة تاريخية مهمة للفكر الإسلامي وهي، كيفية استقبال علماء الإسلام المنطق الأرسطي، هل ارتضوه منهجا لهم أو قدموا بديلا عنه؟

بحث (بن الصديق، 2013م)، بعنوان: (مقاربة مناهج البحث عند المسلمين (الدراسات الإسلامية نموذجا)، حيث وضع الباحث مقدمة أشار فيها إلى المكانة التي يحتلها البحث العلمي في الفكر الإسلامي، كما أشار إلى واقع البحث العلمي في البلاد الإسلامية مقارنة بغيرها، وأسباب ذلك، ثم تحدث عن مشكلة البحث العلمي وآفاقه، وختم بحثه بمقاربة لمنهج البحث العلمي عند علماء المسلمين.

بحث (ضميرية، 2013م)، بعنوان: (الفكر العلمي في الإسلام). تحدث فيه الباحث عما يلي: مصادر المعرفة وطرق العلم، خصائص مصادر المعرفة وقيمها، حدود العلم والمنهج التجريبي، الخاتمة وفيها أهم النتائج والتوصيات.

بحث (عليّ، 2011م)، بعنوان: (أصول البحث العلمي في القرآن الكريم). وقد حاول الباحث من خلال بحثه استنباط الأسس العلمية للبحث من القرآن الكريم، سواء في العلوم الطبيعية، أو العلوم الكونية، أو العلوم الإنسانية.

بحث (أبو ججحوح، 2011م)، بعنوان: (أخلاقيات البحث العلمي المستنبطة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة)، تحدث فيه الباحث عن الأخلاقيات الضرورية للبحث العلمي كما أكد عليها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ليتم على ضوء ذلك تحديد المؤشرات السلوكية لأخلاقيات البحث العلمي.

بحث (أوغلو، 1991م)، بعنوان: (البحث العلمي في العالم الإسلامي)، والموضوع الرئيسي الذي يدور حوله هذ البحث هو حركة البحث العلمي في العالم الإسلامي. والهدف من البحث هو إلقاء نظرة سريعة على وضع الأنشطة في مجال البحث العلمي واتجاهاتها الأساسية وتطورها وتحديد المشاكل التي تواجهها بصورة عامة، وإيجاد المجالات التي يجب أن يتم فيها التنسيق والتعاون بين مؤسسات البحوث المختلفة

بحث (الجندي، 1990م)، بعنوان: (مشكلة الاستقراء والعلمية بين المسلمين والغربيين (دراسة مقارنة). يعالج هذا البحث موضوعاً هاماً من موضوعات فلسفة العلم عند مفكري الإسلام، وهو الموضوع المتعلق بالتقويم المنطقي للاستقراء، من حيث مبدؤه وأساسه في المنهج العلمي، وكذلك ما يتعلق في هذا الجانب من علاقة الاستقراء بالعلِّية، وما تمخض عن ذلك من اكتشافهم لجملة معان أساسية تسجل لهم السبق في مجال فلسفة العلم على علماء أوروبا المعاصرين.

أما المؤلفات فهي من الكثرة بمكان، ولكننا سنختار منها ما هو أكثر أهمية بالنسبة لهذا البحث، ومن ذلك:

كتاب (منتصر، 2012م)، بعنوان: (تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه). يضم الكتاب عشرين فصلاً، ويخصص المؤلف في أحدها مساحة نقاش وبحث موسعين لبنى ومكونات التراث العلمي العربي: العلوم الطبيعية. ويبين منتصر في (العلم والطريقة العلمية)، كيف استطاع العقل البشري تصنيف العلوم التي زادت وفاضت، شارحاً ماهية اشتراك العرب في صنع المعرفة الإنسانية، عبر البحث العلمي والاستقراء المنطقي للنتائج.

كتاب (عوض، 2011م)، بعنوان: (في رحاب الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى)، حيث قسَّم المؤلف بعد المقدمة والمدخل كتابه إلى عدة أقسام: نظم الحضارة الإسلامية، الإسهامات العلمية للحضارة الإسلامية، المدن والفنون في الحضارة الإسلامية، الحضارة الإسلامية عالمية المصب وموقف الغرب منها.

كتاب (العيسوي، 1997م)، بعنوان: (مناهج البحث العلمي في الفكر الإسلامي والفكر الحديث)، قسم المؤلفان الكتاب إلى عدة فصول: التعريف بالمصطلحات المنهجية، تطور الفكر المنهجي، المنهج التجريبي، الأصول التاريخية للمنهج العلمي، المنهج العلمي عند بعض مفكري الإسلام، مناهج البحث المستخدمة في علم النفس وفي الطب النفسي، معالم الطب النفسي الإسلامي عند بعض مفكري الإسلام.

كتاب (سعيدان، 1988م)، بعنوان: (مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الإسلام)، بعد توطئة قصيرة وضح المؤلف فيها هدفه من تأليف الكتاب، قام بتقسيم الكتاب إلى خمسة فصول: تعريف بالعلم والمنهج العلمي، ومعالم في تاريخ الفكر العلمي، ولحظات مع الفلاسفة، سلَّم الحضارة الغربية، عتاب وأمان عذاب، خاتمة.

كتاب (النشار، 1984م)، بعنوان: (مناهج البحث عند مفكري الإسلام، واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي)، قام المؤلف بتقسيم الكتاب إلى خمسة أبواب: المنطق الأرسططاليسي بين أيدي الشراح والملخصين الإسلاميين، موقف الأصوليين من المنطق الأرسططاليسي حتى القرن الخامس الهجري، موقف الفقهاء من المنطق الأرسططاليسي بعد القرن الخامس الهجري، موقف الإشراقيين من طرق البحث النظرية، مناهج البحث لدى علماء العلوم الكيميائية والطبيعية والرياضية في العالم الإسلامي.

كتاب (روزنتال، 1961م)، بعنوان: (مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي)، قسم المؤلف كتابه إلى عدة أقسام:

المقدمة، الكلمة المدونة كأساس للمعرفة، طريقة المعالجة النقدية، البحث العلمي تطوره وتقدم أساليبه.

كتاب (اليازجي، 1954م)، بعنوان: (معالم الفكر العربي، وهو عرض مجمل تراث العرب الفكري في إبان نهضتهم العلمية). فبعد مقدمة وتمهيد، قسم المؤلف الكتاب إلى قسمين: القسم الأول: في النهضة العلمية، والقسم الثاني: في الاتجاه الفلسفي.

وقد حاول الباحث من خلال سياحته في رحاب هذه البحوث والدراسات والمؤلفات التي أشار إليها آنفا، وفي غيرها - بالطبع -، حاول الاستفادة من جميع ما وقع تحت يده، وقام على ضوء ذلك ببناء رؤيته التأصيلية الناقدة لطبيعة علاقة البحث العلمي بالفكر الإسلامي، ومن ثم التطرق إلى معرفة مراحل تطور البحث العلمي في الفكر الإسلامي، من خلال استخلاصه لأبرز ما توصلت إليه تلك البحوث والدراسات والمؤلفات من نتائج ومن ثم مناقشتها، ومحاولة وضعها في سياق الهدف الذي يسعى هذا البحث إلى الوصول إليه.

مشكلة البحث:

من خلال اطلاع الباحث على الكثير من كتب مناهج البحث العلمي، والتي تؤكد في معظمها على حداثة ظهور مناهج البحث، تواردت إلى ذهن الباحث العديد من التساؤلات: هل يعني هذا أنه لم تكن هناك مناهج بحث علمي في العصور القديمة، وبالأخص في تاريخ الحضارة الإسلامية التي امتدت على مدى أربعة عشر قرنا، وفي حال وجدت هذه المناهج العلمية في الحضارة الإسلامية، فما هي مراحل تطورها منذ تأسيسها في أول ظهور للإسلام وحتى عصرنا الحالي؟ وعلى ضوء هذه التساؤلات التي نشأت عند الباحث، رأى الباحث إمكانية تحويلها إلى مشكلة لبحث يجيب فيه على هذه التساؤلات، وقد تمثل البحث في السؤال الرئيس الآتي:

س: ما مراحل تطور البحث العلمي في الفكر الإسلامي؟

ويتفرع عن هذا السؤال الأسئلة التالية:

1- هل كان هناك مناهج للبحث العلمي في الفكر الإسلامي منذ تأسيسه وحتى الآن؟

2- ما طبيعة علاقة الفكر الإسلامي بالبحث العلمي ومناهجه؟

3– ما مراحل تطور البحث العلمي في الفكر الإسلامي في العصور التالية:

أ- عصر النبوة والخلافة الراشدة. ب - عصر الدولة الأموية. ج - عصر الدولة العباسية. د. عصر الدولة العثمانية. هـ - العصر الحديث؟

هدف البحث:

يسعى البحث إلى توضيح الأهداف التالية:

1- التعرف على أصالة البحث العلمي في الفكر الإسلامي.

2- التعرف على طبيعة علاقة البحث العلمي بالفكر الإسلامي، وأسسها المتينة التي تربط البحث العلمي بالفكر الإسلامي.

3- التعرف على مراحل تطور البحث العلمي في الفكر الإسلامي في العصور التالية: أ- عصر النبوة والخلافة الراشدة. ب - عصر الدولة الأموية. ج - عصر الدولة العباسية. د. عصر الدولة العثمانية. هـ - العصر الحديث

أهمية البحث:

تنبع أهمية البحث من خلال الآتي:

1- البحث يتصدى للحديث عن مصطلحين مهمين هما: مصطلح البحث العلمي ومصطلح الفكر الإسلامي، ولا يخفى على كل لبيب أهمية ومركزية هذين المصطلحين في الحضارة الإسلامية.

2- يحاول البحث التعرف على طبيعة العلاقة بين البحث العلمي والفكر الإسلامي، ويسعى بقدر المستطاع إلى تأصيل هذه العلاقة، ونقد بعض الجوانب التي لا تخدم البحث العلمي ولا الفكر الإسلامي.

3- البحث الأول من نوعه - حسب علم الباحث - في التعرف على مراحل تطور البحث العلمي في الفكر الإسلامي حسب الحِقب التاريخية التي اقترحها الباحث، والتي قسمها إلى خمس مراحل (عصور).

4– النتائج التي سيخرج بها البحث مرآة للباحثين في الفكر الإسلامي والبحث العلمي وطبيعة العلاقة بينهما.

5- البحث من البحوث القليلة التي تسعى إلى تأكيد أهمية الثقة بالنفس وضرورة التمسك بالهوية الإسلامية، من خلال إبراز جوانب القوة في الفكر الإسلامي، والتي يحاول البعض إهمالها وتقديم الرؤية الحضارية الغربية في الفكر وفي البحث العلمي على علاتها، وعلى ما في بعضها من قصور وتصادم مع القيم الإسلامية.

منهج البحث:

استخدم الباحث في هذا البحث المنهجين الوصفي والتحليلي. باعتبار أن المنهج الوصفي طريقة لدراسة الظواهر أو المشكلات العلمية من خلال القيام بالوصف بطريقة علمية، ومن ثم الوصول إلى تفسيرات منطقية لها دلائل وبراهين تمنح الباحث القدرة على وضع أطر محددة للمشكلة، ويتم استخدام ذلك في تحديد نتائج البحث. أما المنهج التحليلي: فهو منهج يقوم على تقسيم أو تجزئة الظواهر أو المشكلات البحثية إلى العناصر الأولية التي تُكَوِّنها؛ لتسهيل عملية الدراسة، وبلوغ الأسباب التي أدَّت إلى نُشوئها، ويستخدم بالتزامن مع طرق علمية أخرى.

وعن طبيعة العلاقة بين المنهجين (الوصفي والتحليلي)، ولجوء الباحث لاستخدامهما في بحثه، فيمكن القول

أن المنهج الوصفي يأتي في مقدمة جميع المناهج العلمية، ولا يكاد يخلو أي بحث علمي منه، سواء أكان ذلك بشكل مباشر، أو غير مباشر، وهو يهتم في الأساس بتبني ظاهرة في الطبيعة، وصياغة العلاقات في صورة أسئلة بحثية أو فروض خبرية، والمنهج التحليلي يساعد في بلوغ نتائج أكثر دقة بنهاية البحث؛ من خلال أعمال التجزئة والتقسيم والتقويم للمشكلة، والتعمق في التفسير، بمعنى أن أسس المنهج التحليلي تكمل إجراءات المنهج الوصفي أو غيره من المناهج العلمية. ويشتمل المنهج التحليلي على ثلاثة محاور هي: التفسير والنقد والاستنتاج، وهي المحاور التي احتاجها الباحث كي يخرج بحثه بالشكل المطلوب. كما استعان الباحث بالمنهج التاريخي المقارن، كون بحثه يمتد على مراحل تاريخية متباعدة.

مصطلحات البحث:

أ - مرحلة:

- مرحلة: مَرحَلة [مفرد]: وجمعها مَراحِلُ: وتعني قَدْرٌ محدود من الشّيء، أو مسافة يقطعها المسافر في يوم تقريبًا، فنقول: بيننا وبين مكان كذا ثلاث مراحل. ونقول: ما زال بينك وبين الإتقان مراحل ومراحل: يعني: خطوات كثيرة.

- مراحل النُّموّ: تتابع التغيُّرات العقليّة والجسميّة بمرور الزمن، وينتج عنها تراكم الظواهر خلال دورة حياة الإنسان بمراحلها المختلفة.

- مرحلة المراهقة: مرحلة من حياة الإنسان تبدأ بعد الطفولة، وأحيانًا يُطلق عليها اسم مرحلة الرشد الصغيرة.

تعريف مراحل: تتابع التغيُّرات العقليّة والجسميّة بمرور الزمن، وينتج عنها تراكم الظواهر خلال دورة حياة الإنسان بمراحلها المختلفة. (عمر، 2008م، 2/ 871). ويعني بها الباحث هنا، تتابع الحِقب التاريخية لتطور البحث العلمي في الفكر الإسلامي ابتداء من مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، مرورا بالخلافة الراشدة، والدولة الأموية والعباسية والعثمانية، وحتى عصرنا الحاضر.

ب - تطور:

- طور: الطاء والواو والراء أصل صحيح يدل على معنى واحد، وهو الامتداد في شيء، من مكان أو زمان، ثم استعير ذلك في كل شيء يتعدى. ومن الباب قولهم: فعل ذلك طورا بعد طور، كأنه فعله مدة بعد مدة. (ابن فارس، 1979م، 430 - 431).

- طوَّره: حوله من طور إلى طور. وتطور: تحول من طور إلى طور.

- التطور يعني: التَّغَيُّر التدريجي الَّذِي يحدث فِي بنية الكائنات الْحَيَّة وسلوكها وَيُطلق أَيْضا على التَّغَيُّر التدريجي الَّذِي يحدث فِي تركيب الْمُجْتَمع أَو العلاقات أَو النّظم أَو الْقيم السائدة فِيهِ. (الزيات وآخرون، 2004م، 569 - 570).

- ويعني اصطلاحا: نمط من أنماط التغيير التي يمر بها الفرد أو النظم الاجتماعية؛ نتيجة لتفاعل العديد من القوى مثل الأفراد والمنظمات المجتمعية والعادات الاجتماعية، وهو تغيير يتسم بالنمو لبنية معينة أو لوظيفة أو مهارة معينة، وهو يعتمد على مراحل متعددة. (فلية والزكي، 2004م، 103).

ج - البحث العلمي:

يؤكد (زكريا، 1978م، 31) على ضرورة خضوع البحث العلمي لقواعد معينة، فيقول عن البحث العلمي بأنه: "بحث يخضع لقواعد معينة، وليس بحثا علميا متخبطا، ومع اعترافنا بأن هذه القواعد قابلة للتغير باستمرار، فإن مبدأ الخضوع لقواعد منهجية هي صفة أساسية غير المعرفة العلمية".

والبحث العلمي كما يعرفه (عليّ، 2010م، 355): "هو جهد منظم، يقوم به باحث ملتزم بالموضوعية، في أي ميدان من ميادين المعرفة الإنسانية، مستخدما منهج البحث الذي يناسب موضوعه، مستهدفا تنمية المعرفة الإنسانية، واكتشاف الحقائق التي أودعها الخالق في مخلوقاته، وإدراك تلك التي أخبر بها عباده".

لكن علينا أن نقول إن البحث العلمي لن يقدم حلولا خارقة، إنه يقدم معرفة منظمة أكثر، ولكن لا يمكنه أن يقدم حلولا فورية للمشكلات الأكثر عمقا. البحث الجيد يقدم معلومات، وتحليلات أفضل، ولكنها دائما غير كاملة. إنه يقدم عنصرا صغيرا ولكن لا يمكن إهماله. إنه يساعد على تحديد مدى الاختيارات، لكنه لا يصنع هذه الاختيارات (طائفة من المتخصصين، 1975م، 65). والبحث العلمي ينمو ويقوي في ظل الحرية، ويضعف ويضمر في مناخ الكبت، ومفهومه يفترض أن المعرفة تأتي من مصادر عدة وأنها مفتوحة النهاية بل ومجهولة النهاية أيضا.

ويمكن تعريف التفكير العلمي إجرائيا بأنه: " كل نشاط عقلي هادف مرن، يتصرف بشكل منظم، في محاولة لحل المشكلات، ودراسة وتفسير الظواهر المختلفة، والتنبؤ بها، والحكم عليها، باستخدام منهج معين، يتناولها بالملاحظة الدقيقة والتحليل، وقد يخضعها للتجريب في محاولة للتوصل إلى قوانين ونظريات" (بكار، 2000م، 41).

د - الفكر الإسلامي:

الفكر الإسلامي يعني: "تلك الاجتهادات التي تمت في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية، وما صح من الفكر

الإسلامي، في ضوء متغيرات العصر" (أبو العينين، 1986م، 11).

وبهذا فالفكر الإسلامي المعاصر يُعنَى بكل ما أنتجه المسلمون من فكر، سواء في معالجة القضايا المحلية أم مجابهة التحديات المستجدة وحتى التحديات القديمة – والتي لا تزال في هذا العصر تعاني منها الأمة – مستلهمين ذلك من مصادره الأصلية (خروبات، 1998م، 14).

وثمة ملاحظة جديرة بالتذكير، وهي أن الفكر الإسلامي ليس هو الإسلام المثل بالمثل، بل هو ما أبدعته العقلية الإسلامية في محاولتها لتنزيل الإسلام على الواقع وتطبيقه، فهو بذلك محكوم بالأطر الزمانية والمكانية.

فالفكر الإسلامي قد يخطئ ويصيب فهو غير معصوم في ذلك كله، الفرق بين الإسلام وبين الفكر الإسلامي، هو الفرق بين ما نسب إلى الله وما ينسب للإنسان، والعلاقة بينهما هي علاقة بين شيئين أحدهما قام على الآخر واعتمد عليه في قيامه ووجوده، ولكن لا على أن يكون مطابقا له تمام التطابق (الغزالي، 1993م، 137).

ولا شك أن الفكر الإسلامي بروافده المتعددة قد نشأ ونما وترعرع في رحم عقيدة لها منطلقاتها الأساسية ورؤيتها الخاصة لله والكون والإنسان، مما لا بد أن يكون له أصداؤه على الآراء المختلفة التي تصدر عن أصحاب الاتجاهات الفكرية مع تباين هذه الأصداء من اتجاه إلى آخر (عليّ، 1991م، 11).

والفكر الإسلامي الذي نقصده لا بد له أن ينطلق من ضوابط الإسلام، ولكنه بالرغم من ذلك فإنه عبارة عن مواقف اجتهادية لعلماء الإسلام ومفكريه، فعند تصنيفه والحديث عنه وعن مراحله لا بد أن يدرك كل قارئ لذلك الفكر بذلك الفصل الحاسم بينه وبين أسسه وضوابطه وقواعده. وهي الوحي الإلهي الممثل بالقرآن والسنة النبوية الشريفة (عبد الحميد، 1996م، 42).

والفكر الإسلامي فكرٌ شموليٌ يقوم على أساس من العقيدة الربانية، وتأثيره في السلوك كبيرٌ، وهو من أعظم حاجات الإنسان المسلم في مراحل نموه كافة. حيث تبدأ صلة المسلم بالفكر الإسلامي منذ طفولته، وتستمر في التصاعد بنمو وعيه وإدراكه، وهو بحاجة دائمة إلى ما يُلبي شغفه للعلم والمعرفة، وشوقه للصلة بربه، ورغبته في تطوير سلوكه (غازي، 2012م، 84).

هـ - التأصيل:

- أَصُلَ أصالةً: تثبت وقوي. والرأي: جاد واستحكم. والأسلوب: كان مبتكرا متميزا. والنسب: شرُف، فهو أصيل. وأصَّل الشيء: جعل له أصلا يبنى عليه. والأصالة في الرأي: جودته. وفي الأسلوب: ابتكاره. وفي النسب: عراقته. وأصل الشيء: أساسه الذي يقوم عليه، ومنشؤه الذي ينبت منه (الزيات وآخرون، 2004م، 20).

وقد أكّد المستيري على أن السؤال عن التأصيل هو سؤال عن المعاصرة، فهو يتحدث عن التأصيل وكأنه يتحدث عن وجوب المعاصرة، وحديثه عن جدل التأصيل والمعاصرة هو نقد لهذا الجدل، ذلك أن التأصيل يجب أن يكون في صلب المعاصرة لا مفصولا عنها وأن يتأسس ضمن المعاصرة، فكل معاصرة تقتضي تأصيلا، وكل أصالة تقتضي تعصيرا (المستيري، 2015م).

مراحل تطور البحث العلمي في الفكر الإسلامي (دراسة تأصيلية ناقدة)

المرحلة الأولى: عصر النبوة والخلافة الراشدة:

هذه المرحلة من أقصر المراحل بالنسبة لمراحل تطور الفكر الإسلامي مقارنة بالمراحل التي تليها، ولكنها تعتبر من أخصب المراحل، فنصف قرن تقريبا؛ هي فترة النبوة والخلافة الراشدة، صنعت فارقا كبيرا، وكانت فترة تأسيسية مباركة للفكر الإسلامي الذي انطلق من خلالها ليؤسس مرحلة جديدة في تطور العقل الإسلامي، الذي جعل من البحث العلمي أداة من الأدوات التي استعان بها ليواصل عطاءه خلال المراحل التالية وحتى يومنا هذا.

وقد كان القرآن وما زال وسيظل الأساس الأعظم الذي تأسست عليه العقلية الإسلامية المنهجية، وما كان للحضارة الإسلامية أن تقوم لها قائمة بدونه. وإنه من غير الممكن أن يمتلك الباحث المسلم منهجا علميا أو يقدم دراسة علمية وهو لا يفهم الإسلام على حقيقته، ويمسك بالسمات الأساسية التي تحكمت بالمجتمعات الإسلامية وظواهرها المختلفة، ومن لا يفعل ذلك لن ينقذه من لا علميته ادعاؤه العلمية. وقد استفاد المسلمون من دراسة القرآن الكريم استفادة كبيرة، فقد خلق فيهم النزعة العلمية، وغرس في نفوسهم الميل الشديد إلى البحث والنظر والملاحظة والتجربة، وتلك هي أسس الطريقة العلمية الحديثة في التفكير.

وقد نقل القرآن الكريم العقل المسلم من حالة التجريد التي كانت سائدة في الحضارات التي سبقته، إلى فهم حقيقي لواقع الكون وواقع الإنسان، فآيات الآفاق وآيات الأنفس هي صورُ الواقع ومعطياتُه التي يراها العقل المسلم ويأخذها، بوصفها مصدراً للمعرفة والفهم والهداية. بهذه الروح الإيمانية الخلاقة أحسن المسلمون الأوائل استخدام وسائل المعرفة والبحث العلمي، واندفعوا في مطلع عهد الرسالة الإسلامية إلى الأخذ

بمنهج النظر والبحث العميقين في مختلف مجالات العلوم وقدموا للحضارة الحديثة رصيدا هائلا من الكتب والأبحاث والاكتشافات والتقنيات، لولاها لتأخر سير المدنية الحديثة عدة قرون. (باشا، 1996م، 81).

وعندما يجمع القرآن الكريم بين هذين النوعين من الأدوات وهما: الحس والعقل في المسؤولية، فإنَّه يوضّح أنَّ السمع والبصر، بوصفهما من أدوات الحس، والفؤاد، بوصفه أداة الفهم والإدراك والتعقل، هما موضع للمسؤولية، قال تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} [الإسراء: 36]، فكأنما يؤكد الحاجة إليهما معاً، والحاجة إلى إعمالهما دائماً، وبصورة متكررة، فلا تقف عند الإحساس الشكلي العابر والتفكير السطحي السريع. لكأنما القرآن الكريم يطلب من الإنسان وهو يُعمِل السمع والبصر والفؤاد إعمالا عميقاً متأنياً يقلِّب فيه البصر ويقلِّب الرأي، ويتروّى في إصدار الحكم حتى يستكمل عناصر المشاهدة والتجربة والاختبار الحسي بصورة تتكامل معها عناصر المحاكمة العقلية، وتتضح الأدلة والبينات والبراهين. (ملكاوي، 2016م، 144، 145).

وهكذا تتضافر الفطرة التي فطر الله الإنسان عليها، بما هو مكنون فيها من استعدادات وملكات، مع التوظيف الفطري والمكتسب لأدوات الوعي والإدراك، المتمثلة في السمع والبصر والفؤاد، في بناء مناهج للتفكير والبحث والممارسة؛ التفكير في أعماق النفس وآفاق الكون، والبحث عن إجابات الأسئلة والاستفسارات التي تملأ حياة الإنسان عن عالمه النفسي، ومحيطه الكوني، ومن ثم توجِّه سلوكه وممارساته. كل ذلك يجعلنا نطمئن إلى القول: "إن المنهجية ليست أمراً طارئاً على فكر الإنسان وحياته، وإنما هي طبع فطري في خلق الإنسان المستخلف في هذه الأرض، وأمر عقلي يختص بالإنسان العاقل، وشأن عملي يقتضيه سلوك الحياة في كل جوانبها. ونستخلص من ذلك كله أن قراءة الوحي تتم بإعمال العقل والحس من أجل فهم العالَم والتعامل معه؛ وفي الوقت نفسه تتم قراءة العالَم بإعمال العقل والحس من أجل فهم الوحي والتعامل معه". (ملكاوي، 2016م، 171 - 227).

لقد تمثل الاستدلال العلمي في القرآن الكريم بنصوص كثيرة ومتنوعة عالجت عدة موضوعات تشكل بمجموعها أسس المنهج العلمي في التصور والاستدلال، يقول تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [البقرة: 164]. وهكذا وجه القرآن الكريم العقل للتدبر والملاحظة، وطلب إليه أن يتعمق في هذه المظاهر لكي يستدل على مدبرها ومنشئها. وهذا هو ما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم وهو يتحدث عن هذه الآية بقوله: (...ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها)، رواه ابن حبان وغيره، وصححه الشيخ الألباني.

والحقيقة أن القرآن الكريم قد أولى منهج الاستدلال أهمية بالغة وأكد على عرضه بأساليب مختلفة، لأنه الطريق الذي يؤدي بالإنسان أخيرا إلى الحصول على اليقين والقطع، وواحدة من هذه المظاهر في الاستدلال ما نلمسه من موقف إبراهيم عليه السلام؛ عندما استعرض الظواهر الكونية - بأسلوب منهجي استدلالي - حيث استعرض الكواكب أولا ثم القمر وأخيرا الشمس، فنراه في استدلاله هذا يربط قراره بمعلَم معين من مظاهر الطبيعة، وحين يتبين له أن هذا العَلَمَ لا يصلح أساسا للحكم ينتقل منه بطريقة منهجية استدلالية إلى مَعْلَمٍ آخر في ظاهرة أخرى، فيبين كذلك عدم صلاحيته، فينتقل أخيرا إلى هذا المَعْلَم الثالث الذي يعلل ارتياحه إليه أو اختياره له بقوله (هذا أكبر)، ثم يعرض أخيرا عن كل هذه الظواهر التي يجمعها كلها أنها ثابتة ومتغيرة لا تصلح أن تكون حقيقة ثابتة يجدر لها الولاء والعبادة. قال تعالى: {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ، فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ، فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ، فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ، إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [الأنعام: 75 - 79].

فقد أرانا الله كيف تدرج إبراهيم في الاستدلال خطوة خطوة حتى استنفذ الفروض الثلاثة الكبرى لينتهي إلى حقيقة الذات الجديرة بالولاء والعبادة وهي الذات الإلهية ذات الصفات التي لا تنطبق على هذه الظواهر. وفي رحاب هذه النزعة الاستدلالية، والمنهجية العلمية، وجد العلماء والمفكرون المسلمون متسعا للتحرك نحو صياغة منهج البحث العلمي، مجسدين التصور القرآني في نزعتهم العلمية فأدى ذلك إلى قيام نهضة علمية شملت ميادين علمية مختلفة. (الجندي، 1996م، 32).

إنَّ القرآن المجيد كما اشتمل على الشريعة بتفاصيلها، قد اشتمل على المنهج العلمي بمحدداته - كلها - وأن الله - تبارك وتعالى - كما أكمل لنا الدين، وأتمَّ علينا النعمة، وفصّل لنا الشريعة، فقد أودع كتابه الكريم (المنهاج) القادر على التصديق

على سائر ما وصلت إليه البشرية من مناهج واستيعابها وتجاوزها. (ملكاوي، 2016م، 83).

ولا يمكن أن نغفل عن واقعة أساسية، وهي أن القفزة العلمية الجديدة التي شهدها العالم الإسلامي القديم، إنما حدثت نتيجة لتغيير حضاري شامل، أحدثه الإسلام في البيئة العربية أولاً، والبيئات التي فتحها المسلمون ثانيًا (الجابري، 2009م، 150). فقد تشكلت العقلية الإسلامية في هذه المرحلة بفضل الوحي أولًا. فعن الوحي؛ متمثلا في (القرآن والسنة) صدرت الصياغة المنهجية العقلية للمعارف العلمية في لحظة التأسيس وهي: علوم الوحي (التفسير والأصول والحديث)، وعلوم الآلة (اللغة والنحو)، وعلوم الحال (الرياضيات والفيزياء)، وانبثقت طرق الاستدلال تبعاً لهذه الصياغة. مما استدعى تكامل العقل والنقل وانسجامهما، واعتبار مكانة الحقيقة العلمية من مكانة الدين نفسه.

وصحيح أن البحث في العقائد والغيبيات هو مما لا ينبغي التوسع فيه، إلا بقدر ما يوحِّد تصور المسلمين عن الله والنبوة والأخرويات، ولكن السبب في تقليص هذا التوسع يرجع إلى الرغبة في توجيه العقل المسلم نحو التفكير العلمي المنتج، وعدم استنزافه في البحث عن أمور لا طائل من البحث فيها. ومن هنا نفهم سبب اعتراض الفقهاء والعلماء على إغراق المتكلمين في الانشغالات الجدلية. فقد كانت تعرقل فعل العقل المنهجي المنتج.

و"الإسلام جاء لبناء العقلية الإسلامية العلمية التحليلية البرهانية، التي تقدِّر حاجة القلب إلى اليقين، وحاجة العقل إلى الاقتناع، وحاجة النفس إلى الاطمئنان، وحاجة الإنسان إلى الصلاح، وحاجة الحياة إلى الحضارة والمدنية، وتعمل على تلبية تلك الاحتياجات ـ كلها ـ" (العلواني، 1992م، 66 -67)، كي لا يبقى للناس أي حجة، كما قال تعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [النساء: 165].

ومعجزة الرسالة الخاتمة ـ كما لا يخفى على كل ذي بصر وبصيرة ـ معجزة عقلية فكرية مجردة خالدة، دافعة للتفكر والاجتهاد والتوليد في كل زمان ومكان... ربَّت عقل الإنسان، وزودته بأدوات البحث العلمي، وحرضته على النظر والاعتبار، ووحدت أبجديات القراءة بالمواءمة بين علوم الحياة وعلوم المادة، وجعلت علم الأنفس (علم الإنسان) وعلوم الآفاق (علم الكون بكل مكوناته) ميدان هذا الكسب المعرفي، وميدان النظر والاستبصار والكشف العلمي للسنن والأسباب والقوانين الناظمة لحركة الحياة والأحياء، وتحصيل البراهين والآيات الدالة على الحقائق من خلال الملاحظة والاختبار (حربي، 2005م، 6، من مقدمة عمر عبيد حسنة).

إن القرآن الكريم لم يأت قطعاً، وبصورة مباشرة، لا بالحساب العشري ولا بالجبر والهندسة، ولكنه أتى بالمناخ العقلي الجديد الذي يتيح للعلم أن يتطور، كما تطور بالنسبة إلى مرحلته السابقة في العهد الإغريقي والروماني، و"الأمر الجدير بالملاحظة هو أن تطور العلم لا يناط بالمعطيات العلمية فحسب، بل بكل الظروف النفسية الاجتماعية التي تتكون في مناخ معين، والأمر الجدير بالملاحظة ـ أيضاً ـ هو أن مراكز الاهتمام للعقل تتغير من عصر إلى آخر، ومن حضارة إلى غيرها، حسب التغيرات التي تحدث في المناخ العقلي بالذات" (بن نبي، 1969م، 28).

وجدير بالذكر ـ أيضا ـ أن العقل في القرآن والسنة إلى جانب كونه عقلًا برهانيًّا إدراكيًّا، فهو في الوقت نفسه عقل معياري قيمي، لا يكتفي بالإدراك المجرد، ولكنه يدرك الإدراك الذي يجعله يتعرف بالهداية، ويسلك سبيلها، ويتقرب إلى الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ولا تعارض بين هاتين السمتين (البرهانية والمعيارية)، وفق تعبير (أمزيان، 1998م، 92)، فكونه معياريًّا قيميًّا ـ وهي مسألة لا تقوم على الإدراك والتعقل ـ لا ينفي كونه إدراكيًّا برهانيًّا. فلإنه يميز بين الحق والباطل، والحسن والقبح، والخير والشر، يقف إلى جانب الحق والعدل والخير، ويتجنب الانحراف والضلال، وهو موقف قيمي؛ ولهذا بيَّن القرآن الكريم أن سبب الانحراف يعود إلى عدم العمل بمقتضى هذا العقل السليم، قال تعالى: {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [الملك: 10]. والجمع بين الإدراك الموضوعي البرهاني إلى جانب الوقفة المعيارية سمة الإسلام الذي لا يعرف الانفصام والانفصال.

إن اهتمام القرآن الكريم بالتأمل والتدبر في الكون وآيات الخلق في الأنفس والمجتمعات والأمم، لدليل واضح على مدى اهتمامه بتأسيس العقلية العلمية عند المسلم. تلك العقلية التي تنظر بعين إلى الكتاب الكريم وتنظر بالعين الأخرى إلى الكون في ذات الوقت، فتقرأ الكون وآياته المنظورة من خلال قراءتها المتدبرة للقرآن الكريم. إن الغاية من تأكيد القرآن الكريم واهتمامه بقراءة وتدبر آيات الله في الكون والأنفس، غاية تستحث العقول للتنقيب والسير في الكون واستخراج سنن وقوانين سيره. تلك القوانين المطردة التي لا تقبل التغيير ولا التبديل. وهي قوانين خلقها الله ـ عز وجل ـ وأودعها لتحكم الكون وتحدد سيرورته. قال تعالى: {سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} [الأحزاب: 62]. إن تلك القوانين

هي بالفعل مفتاح تحقيق العُمران وإقامة الحضارة المنشودة. (العلواني، 2008، 18-19).

وفي الحقيقة، فإن "القوة المحركة للانفجار العلمي في نشأة العلم الإسلامي وصعوده في كل المجالات، كانت هي الحثُّ القرآني المتكرر على أن يستخدم الإنسان عقله، وأن يشاهد الطبيعة والكون ويتدبر، وأن يستخلص من ذلك النتائج والعبر" (هوفمان، 2011م، 90). هذا الحثّ الذي سعى القرآن الكريم من خلاله إلى تحريك العقل، واستثارة طاقاته في كل وقت، وعلى كل حالة بشتى الأساليب وتنمية مهارات منهج البحث التجريبي، وتأسيس العقلية المسلمة العلمية التي ترى النظر والتفكر في الكون والأنفس فريضة وعبادة تتقرب بها إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ، فقد دعا القرآن الكريم في عدد هائل من آياته إلى التبصر والنظر في حقيقة الوجود والكون وآفاق النفس، لتصل بالعقل إلى الغايات الكبرى، محققا العُمران الحضاري المنشود. قال تعالى: { قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} [يونس: 101]، وقال تعالى: {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ} [الروم: 8]، وقال تعالى: {أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ} [الأعراف: 185].

والتدبر والتفكر والتأمل من أهم العوامل المحفِّزة والدوافع القوية لنهضة فكرية وعلمية هائلة أرست قواعدها قراءة كتاب الله والنظر إلى الكون من خلالها، الأمر الذي أفرز في النهاية الحضارة الإسلامية التي لا يزال الغرب يدين لعلومها وجامعاتها في الأندلس وغيرها. إن المؤمن المتدبر لكتاب الله حق تدبره لهو أقدر من غيره على النظر العقلي في هذا الكون واستخراج مكنونات قوانين سيره، والتعرف على أسراره، ومن ثمّ توظيف ذلك كله لخدمة الإنسانية جمعاء، من خلال توفير سبل أفضل للحياة الكريمة الهانئة. لقد نقل التاريخ بأمانة وموضوعية الأعمال العلمية الهائلة التي قام بها العلماء المسلمون، والتي كانت خير شاهد على ثمرة التدبر والتفكر في حياة الفرد وسلوكه (العلواني، 2008م، 19).

والإسلام أحلَّ العقل مكانته التي تليق به، وعُني به عناية فائقة، وهيأ المناخ المناسب لنشوء المنهج العلمي بكل فروعه، وليس مطلوبا من القرآن الكريم أن يكون كتاب علم بالمعنى الضيق لكلمة العلم، فلا ينبغي أن نحمّل الآيات ما لا تحتمل، ولا أن نصنع جفوة بين الدين والعلم كما يحلو لبعض المؤلفين والباحثين أن يفعلوا ذلك. والحديث عن معنى العقل في القرآن والسنة يستلزمه ذلك الجدل الحاد حول هذا الموضوع، الذي يهدف إلى إفراغ هذا المصطلح القرآني من كل دلالاته المعرفية والعملية وحصر مدلوله في معناه اللغوي، الذي يعني مجرد المنع والكبت والإمساك (عِقال)، ومن ثم وُصِفُ الإسلام بالتحجر والانغلاق وضيق الأفق، أو في معناه الأخلاقي الذي يأتي في صورة تأنيب وتقريع، وهنا تضيق دائرة العقل في الإسلام لتختزل مجموع العلميات العقلية في الوجدان والإحساس والشعور، أو في معناه الإيماني الذي يعني التفكير بنعم الله وإحسانه وإثارة مشاعر التعجب في الإنسان لاستجاشة وجدانه، ومصدر التعقل هنا دائمًا هو القلب لا غير (أمزيان، 1998م، 90). والمتأمل في سياق كلام أمزيان، يتبدى له أن الإسلام قد أحلَّ العقل مكانة تجاوزت معناه اللغوي المعجمي، ومعناه الوجداني، ومعناه الإيماني، إلى أفق جعل من العقل الإسلامي عقلا متوقد الذكاء، ينفعل بكل ما يجري حوله، ويحاول فهمه فهما علميا دقيقا، ومن ثَمَّ توظيفه فيما يعود عليه وعلى الإنسانية بالخير.

والقاعدة العامة التي تحكم هذا التصور؛ هي أن العقل في التصور الذي تنقله اللغة العربية المعجمية يرتبط دومًا بالذات وحالاتها الوجدانية وأحكامها القيمية، وهو في نفس الوقت عقل وقلب ووجدان وتأمل وعبرة.... أما في التصور الذي تنقله اللغات الأوروبية فالعقل مرتبط دومًا بالموضوع فهو إما نظام، وإما إدراك هذا النظام، وإما القوة المدركة. وإذا وجد شيء من هذه المعاني في الثقافة الإسلامية فهو دخيل عليها وتسرب إليها من دخول الفكر الإغريقي إلى العلم الإسلامي.

مكانة العلم والبحث العلمي في الفكر الإسلامي:

لقد رفع الإسلام من شأن العلم باعتباره أساسا لفهم العلاقة السليمة بين الله والكون والإنسان. والقرآن الكريم لا يكاد يدع موطنا في الكون دون أن يطوف بالإنسان خلاله، ويستثير فيه النظرة المتأملة المستقصية، ويلفت أصحاب العقول الراجحة وذوي القلوب المؤمنة إلى المنهج الصحيح في التعامل مع الكون واستقراء لغته وإشاراته، باعتباره كتاب معرفة للإنسان المؤمن الموصول بالله وبما تبدعه يد الله، وقراءة الآيات المنبثة في جنبات الكون وظواهره تتم بالاستخدام الأمثل لملكات الإدراك، والعلم التي وهبها الله للإنسان لتلمس الحقائق الكونية بالاختبار والرصد والتجريب والقياس والاستدلال، مستعينا في ذلك بحواسه، والعقل من الحواس، أو ما يعززها ويعمقها من أجهزة وأدوات تبدأ منها وتعود إليها. (باشا، 1996م، 80 - 81). كما يدل الله عباده إلى شيء من منهجية البحث والنظر، حين يطلب منهم القيام لله مثنى وفرادى، بعيدين عن التأثر بصخب الجماهير، وانفعالاتهم حتى يسلم النظر من المؤثرات الخارجية، قال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى

ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ} [سبأ: 46].

كما وصف (المبارك، 1978م، 128 - 129) من ينفون التفكير العلمي عن الإسلام أو يقولون بأن الإسلام لا ينافي العلم بكونهم جهلة ومقلدون وناقلون عن غيرهم وأنهم بسطاء في تفكيرهم، فيقول عنهم: "إن الذين قالوا إن الإسلام ينافي العلم؛ لأن التفكير الإسلامي تفكير ديني؛ وكل تفكير ديني هو تفكير غيبي؛ فهو إذن مناف للتفكير العلمي، هؤلاء جهال ومقلدون وناقلون. والذين يقولون: إن الإسلام لا ينافي العلم، هؤلاء بسطاء، وهم أشبه بمن يقول إن أفلاطون وأرسطو لم يكونا أميين، وإن إنشتاين يعرف العمليات الأربع في الحساب (الجمع والطرح والقسمة والضرب)، وأن الشافعي وأبا حنيفة لا يجهلان الفقه الإسلامي".

لقد كان الإسلام دين العلم والفكر والنظر، في جميع نواحي دعوة الإسلام، وقد جعل من هذا الإنسان الفريد، ومن هذا الكون العجيب والعالَم الفسيح، مادة للبحث والتأمل، فالبحث العلمي هو استقصاء دقيق يهدف إلى اكتشاف حقائق وقواعد عامة يمكن التحقق منها مستقبلا (همام، 1988م، 37 - 41)، وأقام على ذلك أسسا علمية يضبطها الوحي ليمنعها من التأرجح والاضطراب، ويباعد بينها وبين الوهم والخرافة والتقليد الأعمى.

والمغزى المستفاد من دراسة تاريخ العلم لدى المسلمين يفيد في معرفة أنهم استجابوا لتعاليم الإسلام في تحصيل العلوم والمعارف، والسعي في الأرض للبحث والاكتشاف فحققوا الحضارة بشطريها المدني والروحي الأخلاقي، كما يثبت أيضا أن الحضارة التي أقامها الإسلام لم تكن حضارة روحية فحسب، لسبب واحد يسهل إدراكه، إذا وقفنا على الجذور الغيبية للعقيدة الإسلامية في نظرتها للإنسان، خلقه ودوره ومصيره (حلمي، 2005م، 76 - 77). لقد كانت وحدات العلم مبعثرة، بل كانت في أغلب الأحيان متناقضة، فعلم الطبيعة يخالف الدين، وعلم الحكمة يحارب الدين، حتى العلوم الرياضية والطبية البريئة كان يخرج منها أصحاب الاختصاص - أحيانا - بنتائج سلبية إلحادية، فكان في اليونان علماء إما مشركون وإما ملحدون (الندوي، 1988م، 47). لقد كان من أكبر معطيات النبوات في الزمن السابق، وأكبر حسنات الإسلام في الأخير، أنه دل على الوحدة التي تربط بين وحدات العلم، فقد تيسر له ذلك، لأنه بدأ رحلته في مجال العلم والمعرفة بداية صحيحة، بدأها بالإيمان بالله والاستعانة به والاعتماد عليه، عملا بقوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} [العلق: 1]، وصحة البداية - في غالب الأحيان - كفيلة بصحة النهاية، فاستطاع بفضل القرآن الكريم والإيمان أن يكتشف الوحدة التي تربط الوحدات بعضها ببعض.

وقد نوَّع القرآن الكريم وسائل العلم ومصادر الدراسة والتأمل، ودعا إلى التفكر في الأنفس والآفاق، وفي ماضي الأمم والمجتمعات (الذي يسميه القرآن بأيام الله وسننه في خلقه، ويسميه العلم الحديث بالتاريخ)، والتوصل بكل ذلك إلى نتائج ذات قيمة عميقة الأثر، بعيدة المدى في المصير الإنساني. ومن هذا التنويه بشأن العلم والحث عليه، انبثق ذلك النشاط، وبكلمة أصح، الحماس العلمي، والتفاني في سبيل العلم في تاريخ الإسلام، وانطلقت هذه الحركة العلمية العالمية الخالدة التي تعد مساحتها الزمنية من أكبر المساحات الزمنية ومساحتها المكانية من أكبر المساحات المكانية، وتعد المساحة المعنوية أوسع من كلتا المساحتين (الندوي، 1988م، 50 - 54).

وقد جاء الإسلام داعِيًا إلى البحث العلميِّ والدِّراسة والتَّمحيص والتنقيب والمعرفة؛ فالحِكْمة ضالَّة المؤمن، وطلب العلم فريضةٌ على كل مسلم، وهو في ذلك لا يميز بين عِلمٍ وآخَر، بل اعتبَر العلوم النافعة هي تلك التي تُحقِّق مصلحةً دينيَّة، أو توصل إلى منفعةٍ دنيويَّة، وقد دعا الإسلامُ إلى تمجيد العقل، وتحصيل العلم، حتَّى إنَّه قرنَ شهادة العلماء بشهادته وشهادة الملائكة، قال تعالى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ} [آل عمران: 18]. بل اعتبَر إيمانَ الإنسان وعبادة الله غير كاملةٍ ما لَم تَصْدر عن علمٍ وإدراك وبصيرة، قال تعالى: {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ} [العنكبوت: 43].

وقد كانت الفكرة العلمية نامية لدى علماء المسلمين الأوائل؛ وبالغة من التجريد والتعميم درجة غير قليلة، فكانوا يقولون - كما يظهر من آثارهم - بالقوانين الطبيعية وبشمولها واطرادها، ويسلكون في استنباطها واستخراجها الطرق المعروفة اليوم، والتي تستند إلى المشاهدة والتجربة، وليس استعمال التجارب أداة للتحقيق العلمي مقصورا على العصور الحديثة، فالمدنية الإسلامية كانت واضحة أشد الوضوح في هذا الميدان. وهو ما سماه (النشار، 1984م، 354) بالمنهج الاستقرائي، "فقد وصل المسلمون إلى وضع عناصر هذا المنهج الاستقرائي الذي يقوم على التجربة، وتنظمه قوانين الاستقراء، وهذا المنهج الاستقرائي هو المُعبِّر عن روح الإسلام - والإسلام في آخر تحليل - هو تناسق بين النظر والعمل. يقيم نظرية فلسفية في الوجود ولكنه يرسم أيضا طريقا للحياة العملية".

والخلاصة أن التصور الإسلامي لمناهج البحث العلمي لا يقف بمصادر المعرفة عند المنهج التجريبي وحده، إنه لا يهمله، ولا يقلل من شأنه ولا من شأن ثمراته المعرفية وإنجازاته

التقانية الرائعة، فهو أحد ثمرات الحضارة الإسلامية الرائعة للإنسانية كلها. لكنه لا يقول بأنه السبيل الوحيد للمعرفة؛ فهناك المعرفة الربانية اليقينية المتمثلة في كتاب الله وصحيح سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وهناك المنهج الاستقرائي الاستنباطي، وهناك المنهج العلمي للنظر العقلي، وهو منهج التفكير القائم على العلم والخبرة، وتمحيص الحقائق، وعدم التأثر بمقررات سابقة لا برهان عليها، وعدم الاعتماد على الظن، وطلب الدليل في كل اعتقاد (مدكور، 2001م، 180 - 181).

والإسلام لم يهمل أو يغفل مصدرا واحدا من مصادر المعرفة، كما أنه لم يبرز دوره على حساب سائر المصادر الأخرى ليلغيها أو يلغي واحدا منها، وإن كان يعطي كلا حقه ويحدد له المجال الذي يعمل فيه.

إن التفكير الإسلامي ـ بتأثير مباشر من القرآن الكريم والسنة النبوية ـ أحدث في طرائق البحث العلمي تغييرا جذريا عميقا بالغ الأهمية، ذلك أنه بدل المنهج التأملي الذي كان ينهجه اليونان، والذي يعتمد على مجرد التصور العقلي والقياس المنطقي المجرد، أقام الإسلام المنهج التجريبي، ولا سيما في مجال علوم الطبيعة والعلوم الاجتماعية وجعله المنهج الأساسي في ميدان البحوث الطبيعية في الطب والكيمياء والفيزياء والفلك وغيرها. (المبارك، 1978م، 125 - 126).

وقد تتابعت الآيات القرآنية نزولا، وتواردت معها أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وهي كلها ترسم للمسلمين معالم المنهج الذي يسيرون عليه: "عقيدة، وعبادة، وسلوكا، وأصول نظر واستدلال، فكان لذلك أثره البالغ في تهيئة المناخ لنشوء المنهج العلمي الذي يقوم على التثبت والدقة في الرواية والنقل، بالنسبة للمرويات والأخبار، وعلى الحجة والدليل الواضح الصحيح في العقليات، وعلى التجربة والبرهان والنظر في الحسيات" (ضميرية، 2013م، 60).

لقد كانت الروح الغالبة على القرون الأولى من التاريخ الإسلامي هي روح الإبداع والابتكار والاجتهاد، وكان الدافع إلى هذه الروح العلمية والحركة الدؤوبة وجود سندها في نصوص الوحي نفسها، فقد كان من الطبيعي أن يكيف المسلمون الواقع الاجتماعي الجديد وفق مقتضيات الإسلام، ويجعلوا من الكتاب والسنة نظام حياة وليس مجرد قوانين أخلاقية صورية لا تجد سبيلها إلى واقع الناس. "إن اعتبار الوحي أصلاً من أصول المنهج الإسلامي له دلالته من الناحية المعرفية؛ إذ المعرفة الإسلامية لا يمكن أن تنفصل عن توجيه الوحي، بل إن من أخص خصائص هذه المعرفة أنها منضبطة ومحكومة بهذا الأصل، وهي الميزة التي تجعلها منفردة بمنهجها عن بقية المعارف الإنسانية التي تصدر عن اجتهاد إنساني محض" (أمزيان، 1998م، 77).

والمسلم عندما يجمع بين معطيات الوحي ومعطيات العقل والحس يكون تفكيره أكثر نضجًا وسلوكه أكثر صوابًا وبحثه أكثر عمقًا. ولعل الجمع بين معطيات الوحي ومعطيات العقل والحس هي التي يمكن أن تعصم المسلم المعاصر من شطحات الروح بدون هدايات علوم الكون، أو الاقتصار على معطيات علوم الكون دون هداية الوحي. "إن كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم منبعان متدفقان من البيان في النفس البشرية وطبيعتها ومعدنها وخصائصها، وعن المجتمع البشري وبنياته، وعن علم الأخلاق وأسسه، وعلم الاقتصاد، وغيره من ميادين العلم" (بن الصديق، 2013م، 51).

وإذا كان للغرب أسبابه ومسوغاته التي دفعته دفعًا إلى استدبار الوحي وتركه جانبًا لما اشتملت عليه الأناجيل من تناقضات عقلية، ولما مارسته الكنيسة من إرهاب فكري ضد العلم والعلماء طوال العصور الوسطي، فإن العقل المسلم لم يجد أمامه طوال عصور الازدهار الإسلامي أية عوائق أو كوابح تحول بينه وبين الفكر والسلوك والبحث العلمي الرصين، بل على العكس من ذلك، كان الوحي دائمًا مصدرًا من مصادر صواب الفكر، وسلامة السلوك، وعمق البحوث الإسلامية.

إنه لمن الخطأ، كما تقول الأستاذة (الملقى، 2001م، 141 - 142)، أن يعمد الباحثون والمفكرون المسلمون إلى إهمال مناهج البحث العلمي كما هي في التصور الإسلامي، وإهمال تطبيقاتها في حياتهم الفكرية الفردية والاجتماعية، وبالتالي السير وراء المدارس الوضعية التي تنكر الوحي، وتنكر الرسالات والنبوات، وترفض التعامل مع الغيب ولا تؤمن إلا بعالم الشهادة.

إن الخاصية العملية للتصور الإسلامي للبحث العلمي، تتضمن أن يكون البحث العلمي، نشاطا إنسانيا، هادفا، وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يستعيذ بالله من علم لا ينفع. ووفق مفهوم الإنسان المستخلف في الأرض يجب أن يكون الباحث شخصاً إيجابياً فاعلاً. إنه ليس مجرد خبير يتعالى بنفسه عن عالم الممارسة، غير مبال بالنتائج، وليس مجرد مشارك أو مفسر للواقع بل قائد تغيير. ولكن التغيير والتحويل يجب أن يسترشد بالوحي. ولذلك بينما يتشاطر الباحثون المسلمون مع زملائهم الوضعيين تفسير الظواهر والتنبؤ بها فإنهم لا يتوقفون عند ذلك بل يجهدون للتحسين وليس للسيطرة، وبينما يشاركون زملاءهم النقديين حس المسؤولية عن التغيير فإنهم يختلفون عنهم في اتجاه التغيير (عطاري، 2008م، 90 - 91).

ومن كانت عقيدته الدينية هي (التوحيد الخالص) فإنه يجد في نفسه دافعاً أقوى مما يجد سواه نحو أن يبحث دائماً عن الوحدة التي تؤلف بين الكثرة أياً كان الموضوع، فيبحث عن محور الوحدانية في الشخصية الإنسانية برغم اختلاف الجوانب الكثيرة في حياة الفرد الواحد، واختلاف العلوم الباحثة في تلك الجوانب، وكذلك يبحث عن محور الوحدانية في الكون بأجمعه مجتمعاً في وجود واحد، وما ذلك إلا لأن العلم بالنسبة للباحث المؤمن يكون دنيوياً بعلاقاته مع الأشياء، وتعبدياً في الوقت نفسه لصلته بالله الواحد جل وعلا (باشا، 2017م، 118). وهكذا كان التوحيد الصافي الذي جدد الإسلام دعوته طاردا للخرافة ومحاربا لها ومحررا للإنسانية منها.

إن هذا التصور العام للكون يظهر لأول مرة في تاريخ الأديان وتاريخ الفكر بهذه الصورة الكاملة الخالية من الخرافات والمنفصلة من تداخل الغيبيات، قد أحدث ذلك نقدا هائلا في الفكر العلمي، وقفز به بهذا التوجيه قفزات كبيرة جدا كان من نتائجها تقدم العلوم الطبيعية في الحضارة الإسلامية من الكيمياء والفيزياء والفلك والطب والنبات بالإضافة إلى التوسع والإبداع في الرياضيات، وكذلك جعل الطريقة التجريبية طريقا إلى معرفة الطبيعة بدلا من طريقة التأمل المعروفة عند اليونان، وكان فضل الإسلام في ذلك عظيما (المبارك، 1978م، 40 - 41).

وهذا الالتقاء أعطى صورة واضحة للمفاهيم والتصورات التي ولدها القرآن الكريم بنصوصه وآياته لدى المؤمنين الذين تأثروا به وتحرروا من المفاهيم والتصورات السائدة في العالم القديم، وفي ضوء هذه التصورات المتكونة لديهم نظروا مباشرة إلى الكون وأجزائه، والطبيعة وظاهراتها، كما نظروا كذلك في ضوئها إلى ما لقوه عند الأمم الأخرى من العلوم ولا سيما ما كان منها من نوع العلوم الطبيعية والرياضية فحرروها من الأساطير إذا وجدت، وساروا فيها أشواطا جديدة بدفع من هذه النظرة القرآنية التي تبحث عن دقيق{صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ} [النمل: 88]، وعن سنن الله في خلقه تلك التي وضعت بالثبات والاطراد، كما في قوله تعالى: {سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} [الأحزاب: 62]. وبهذه الطريقة في البحث تبدو لنا حينئذ بوضوح ودقة نظرة الإسلام إلى الطبيعة والعلم الباحث فيها، أي إلى العلوم الطبيعية والمنهج الذي يتولد من هذه النظرة في الوصول إلى حقائقها ووسائلها.

وقد كانت جناية الفلسفات المادية وخطيئتها الكبرى في جعل عالم الطبيعة طاغيا ومنفردا، وسادًّا الطريق على جميع الحقائق التي لا تدخل تحت مقاييسه، وملغيا كل ما لا يدخل في المختبرات والمراصد ولا يقاس بالأعداد والكميات، وهذا التفكير يدل على ضيق في الأفق ومحدودية في التصور وفرض فكرة سابقة دون دليل ولا برهان.

إن التمييز بين عالمين لكل منهما نظامه، وهما: عالم الطبيعة أو عالم الشهادة، وهو العالم الذي يمكن أن يشهد بالبصر أو السمع أو بأي حاسة من الحواس، والقرآن حينما يتحدث عن بعض أجزاء هذا العالَم أو ظواهره يستعمل معه الألفاظ الدالة على الحواس والألفاظ الدالة على العقل والتفكير مشيرا بذلك إلى أنها طرق الوصول إلى معرفة حقائقه، أما العالَم الآخر فهو عالم الغيب وهو العالَم الذي لا يُشهَد، وليس في متناول الحواس أن تعين العقل على تصوره، ولا يدخل تحت المقاييس الحسية فلا تتخذ له المكاييل والموازين ولا تكون الكميات - بالنسبة إلى المعرفة الإنسانية على الأقل - أساسا لتقدير قيمه وتحديد حقائقه.

لقد كانت الديانات السابقة للإسلام قائمة على الخلط بين العالمين (الغيب والشهادة)، وعلى جعل عالم الغيب طاغيا على عالم الشهادة ملتبسا به سادا طريق العقل الذي يريد أن يبحث في مجال عالم الشهادة بل ملغيا عمله ودوره، سواء أكان ذلك نتيجة تحريف الديانات السماوية المنزلة أم كان نتيجة حكمة الله في مراعاة مرحلة طفولة الإنسانية. أما الإسلام فقد تميز في الاتجاهين، وكان أوسع منهما، وأرحب وأشمل، إذ جعل الوجود عالمين لكل منهما كيانه ونظامه والمنهج الخاص لمعرفته (المبارك، 1978م، 113 - 114).

ومن خصائص العرض القرآني لمعطيات الوجود أنه ينبه إلى التقدير المحكم لهذه العناصر وحركتها وانتظامها ووجودها وفنائها، قال تعالى: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا} [الفرقان: 2]. إن تتبع طريقة العرض القرآني يكشف كثيرا من المثيرات العلمية اللافتة لانتباه الإنسان، فهناك تكامل عناصر الوجود ودلالته على شدة التفاعل والارتباط بين هذه الأجزاء والعناصر، وهناك تصنيف هذه العناصر في أجناس وأنواع وجماعات وأمم، وما تثيره في العقل الإنساني من تساؤلات حول خصائصها وعاداتها ووظائفها وطريقتها في العمل، وهناك ظاهرة الخلق وما يتعلق بها من انتقال من طور إلى طور وهكذا ...

وفي تقديري، والحديث على لسان (أمزيان، 1998م،102)، والذي يتفق معه الباحث، أن هذه الظواهر وهذه المثيرات هي التي تستحق التسجيل، وهي التي كانت وراء الجهد العلمي الجبار الذي قطع فيه الإنسان أشواطًا بعيدة، وهذه الظواهر والمثيرات تكفي وحدها لتلهم الإنسان طريق العلم دون الرجوع إلى آيات القرآن، وتلك نعمة إلهية على الإنسانية أن جعل لها كتابًا مفتوحًا تقرأ آياته في الكون؛ ولذلك لم يكن عبثًا أن

ينعتها القرآن بكونها (آَيَاتٌ)، قال تعالى: {وَفِي الْأَرْضِ آَيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} [الذاريات: 20-21]، فهي تقابل آياته في الذكر الحكيم، وتظل هذه الآيات تلهمه طريق العلم، سواء تعرف عليها في كتابه المقروء كما في كتابه المفتوح ما دامت تعرض نفسها في صورة تحد تثير فضوله وانتباهه، وتضعه وجهًا لوجه أمام غوامض الكون ورموزه ومثيراته.

المرحلة الثانية: عصر الدولة الأموية:

يعد هذا العصر امتدادا لعصر النبوة والخلافة الراشدة، في تشكل الفكر الإسلامي وبدايات تبلوره، وظهور بداياته كعلم واضح المعالم، بعد أن تم وضع لبناته الأساسية الأولى في عصر النبوة والخلافة الراشدة، وكانت الدفعة القوية التي أحدثها الوحي (قرآنا وسنة)، لا زالت تؤتي أكلها بكل سخاء، فتأسست في هذا العصر بدايات العلوم الإسلامية التي تميل إلى جانب التصنيف والتخصص، وكانت الفترة التي عاشتها هذه الدولة التي قاربت القرن مرحلة من المراحل التي نضج فيها الفكر الإسلامي وتأسست فيها بدايات المدارس الإسلامية، التي استمر عطاؤها في العصور التالية، وكان البحث العلمي يزداد وضوحا وتخصصا تبعا لتطور الفكر الإسلامي في هذه المرحلة.

فقد كان علماء الحضارة الإسلامية في هذه المرحلة - وما قبلها وما بعدها من المراحل بالطبع - يتحرون الدقة في صياغة المفاهيم العلمية باعتبارها الأساس في بناء المعرفة العلمية السليمة لأي علم من العلوم وعليها يتوقف فهم العلاقة الناشئة بين اللفظ ومعناه بعيدا عن أي لبس أو غموض، فإن معنى اللفظ المستخدم في تعريف المسميات والمصطلحات بتحديد ما يثيره في الذهن من أفكار وتصورات، ووفقا للسياق المعين، الذي يرد فيه كجزء من عبارة أو جملة مفيدة في نظرية أو قانون. (باشا، 1996م، 29).

كما كان المنهج العلمي في الإطار الإسلامي يعني التوثيق والبرهان ضمن المقولة الشهيرة: (إن كنت ناقلاً فالصحة، وإن كنت مدعياً فالدليل)، فقد ارتبطت صحة النقل بعلوم الرواية، وارتبط البرهان بموضوع البحث، فقد يكون البرهان عقلياً منطقياً، أو يكون حسيّاً تجريبياً؛ أي إنّ تمثلات المنهج العلمي في الإطار الإسلامي كانت تشمل ما يسمى اليوم بالعلوم الطبيعية والتطبيقية، والعلوم الاجتماعية والإنسانية، إضافة إلى علوم الشريعة. (ملكاوي، 2016م، 195).

وعموما فقد أجاد علماء الحضارة الإسلامية صياغة ما توصلوا إليه من معارف بدقة تتناسب مع حالة العلوم في عصرهم، وقد ساعدهم على ذلك ما تتميز به اللغة العربية التي ألَفوا بها من ثراء واسع في الألفاظ ودلالات بعيدة في المعاني، فاتسع صدرها لاشتقاق الكثير من المصطلحات العلمية التي احتفظت بأصلها العربي في اللغات الأجنبية التي ترجمت إليها.

وقد كثر الكلام في هذا العصر عن المنهجية والفكر المنهجي، وإن كان في مراحله الأولى، حيث أصبح لكل علم منهجه الذي يضبطه بكلياته وجزئياته، حتى تسرب إلى الأذهان أن منهجية المحدثين نوع من العبقرية الفذة، وأنها نشأت من الحاجة وحدها، والحق الذي لا مرية فيه أن منهجية المحدثين منهجية قرآنية، وأنها مظهر من مظاهر إعجاز هذا الدين، وكما حفظ الله كتابه الكريم من كل تبديل أو تغيير، فقد حفظ السنة النبوية بمجموعها، وصانها من الاندثار والنسيان.

وبذلك يتبين لنا أن منهج المحدثين هو منهج قرآني مستمد من القرآن والسنة، وأنه منهج تاريخي نقدي، أي أنه منهج لا يُسلم بالنص دون محاكمة ونقد، ولا يكفي أن يصدر النص عن عالم أو شخص له احترامه حتى يُقبل، بل لا بد أن تثبت نسبة النص إلى قائله، وأن ينظر فيه نظرة ثاقبة فاحصة لمعرفة اتفاقه مع الأسس الثابتة والمبادئ العامة. (سعيد، 1987م، 24-25).

من ناحية أخرى، عندما يمارس الباحث المؤمن عمله العلمي باعتباره فريضة إسلامية، فإنه يكون على دراية تامة بما تدعو إليه تعاليم الإسلام، من محاربة التنجيم، والتنبؤ العشوائي، والتعصب للعرف والعرق، والاطمئنان إلى كل ما هو شائع أو موروث من آراء ونظريات، وهنا لن يجد الباحث المسلم أي عناء في إدراك أن هذه التعاليم الإسلامية، التي تحارب كل معوقات البحث العلمي تعتبر أوسع وأشمل مما يعرف بأوهام الكهف والقبيلة والسوق والمسرح لبيكون، والتي كثيرا ما يباهى بها ويروج لها فلاسفة العلم وشراح المنهج العلمي.

ومن هنا كانت إسلامية المنهج العلمي في الفكر الإسلامي، ضرورة حضارية ملحة لضمان مواصلة التقدم العلمي والتقني، مع الحفاظ على إنسانية الإنسان، ذلك لأن الإيمان الخالص والسمو الروحي يأتيان في مقدمة الخصائص التي يتميز بها المنهج العلمي في الفكر الإسلامي، وإليها تعزى كل القوى الدافعة لملكات الباحث العلمي على طريق الإبداع والابتكار. فالإيمان الخالص هو الذي يجعل العقل أقدر على كشف الحقيقة العلمية، وأكثر تهيوءا لاستقبالها وقبولها، وهل الكشف العلمي إلا حل لمشكلة يظفر بها الباحث بعد عناء تحليل منهجي شاق ودقيق. (باشا، 1996م، 72 - 78). ونحن لا ننكر، ولا يجوز لنا أن ننكر، أن العالَم من حولنا قد تقدم في مناهج البحث والتفكير، كما تقدم في منهاج العمل والتطبيق، وأصبحت فروع المعرفة ترتبط ارتباطًا عضويًا لا عفويا، لكننا بالمقابل نرفض أن يقال بأن البحث العلمي منبعا ومصبا نشأ وترعرع وأثمر في الغرب تحديدا، فالدورات الحضارية للأمم

والحضارات، تأخذ من الحضارة التي سبقتها وتعطي للحضارة التي تليها، في غير ما ادعاء باحتكار مناهج التفكير والبحث العلمي من أي حضارة.

وقد تجلت في هذا العصر خصائص الحركة العلمية الإسلامية، وإن كان ذلك لا يعني أنها لم تكن موجودة في العصر الذي سبقه، أو لم تستمر في العصور التي تليه، إنما نذكرها في هذا العصر تحديدا، كونها أكثر حضورا وأوضح مسلكا، وقد ذكرها (الندوي، 1988م، من 59 إلى 68)، بشكل مفصل، وسنوردها في هذا البحث بشكل مختصر، وعلى النحو التالي:

1ـ العالمية والإنسانية: فالعلم في الإسلام حق مشاع، وثروة مشتركة لجميع الأمم والشعوب، والعناصر والأجناس، والأسر والبيوتات، والبلاد والأوطان، ليس فيه احتكار، ولا يتميز فيه شعب عن شعب، ولا نسل عن نسل، وليس الاعتماد فيه على العرق والدم، بل الاعتماد فيه على الحرص والشوق، وحسن التلقي، وزيادة التقدير، والتفوق في الجهاد والاجتهاد.

2ـ الشعبية: حيث انتشر العلم انتشارا واسعا بفضل العلماء المتطوعين والأساتذة الزاهدين المتقشفين، الذين زهدوا في مناصب الدولة ووظائفها، وتقدير الأغنياء، وقنعوا بالكفاف وما يقيم الصلب ويسد الرمق. وقد كانت الحركة العلمية في المسلمين حركة شعبية عمت جميع الطبقات والمستويات، وأصبحت الدراسة هواية الجميع يتظرف بها حتى أهل الحِرَف والمهن. حتى أن أحدهم قال: لقد أصبح كل مسلم ـ من الخليفة إلى الصناع ـ ولوعا نهما بالعلم والسياحة (والتي تعني هنا السفر في طلب العلم)، وكان ذلك أجل خدمة قام بها الإسلام نحو الحضارة العالمية، وقد تقاطر رواد العلم من كل صقع على المراكز العلمية في الحواضر الإسلامية.

3ـ الحركية: والتي تجلت في تحمل المشقات وقطع المسافات للحصول على العلم والتوسع فيه والاختصاص في الدراسة.

4ـ الفتوة والعمل بالعزيمة: فقد امتاز علماء المسلمين بعلو الهمة، والشهامة والفتوة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكلمة الحق عند السلطان الجائر.

5ـ التركيز على العلم النافع: الحامل للهداية، والكافل للنجاة، والمفيد في الآخرة، وهو العلم الذي لا سعادة للإنسان ولا نجاة له بغيره، ويعرف به خالقه وفاطر هذا الكون، ومدبر هذا العالم، وصفاته العالية، والصلة التي بينه وبين عبده وما يرضيه تبارك وتعالى وما يسخطه، وما يشقي الإنسان في الدار والآخرة وما يسعده، قال تعالى: {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} [الروم: 7].

وإذا كان الغرب يفتخر بدعوى الوصول إلى اكتشاف منهج البحث العلمي، فإن العرب والمسلمين ليسوا بأقل منه فخرا في وصول علماءهم إلى مبادئ وأخلاقيات البحث العلمي منذ أكثر من ألف عام، والذي يشكل الأسس الفلسفية التي يقوم عليها هذا المنهج، ويصبح بدونهما منهج البحث العلمي خاليا من كل معنى ودلالة، كالجسد بلا روح، فلا قيام لمنهج البحث العلمي دون ثوابت ومبادئ من الأخلاقيات الرفيعة التي تحقق له الموضوعية وتثبت له الحياد التام فتجعل منه صورة صحيحة من صور الحق، الذي يجب الاعتراف به فوق وجهات النظر (مراد، 1988م، 241).

والمسلم لا يرى في البحث العلمي مجرد جري وراء الكشف عن أسرار الكون، وقوانين الله فيه لتطبيق تلك الكشوف والقوانين في استثمار ثروات الأرض وإحكام السيطرة عليها، وهي من واجبات الاستخلاف كما سبق وأن أشرنا بل يرى فيه - فوق ذلك ـ طريق المستكشف إلى الله، ووسيلته للتعرف على خالقه العظيم، وهما من واجبات العبودية لله، تلك العبودية التي تمثل الضمان الوحيد لعدم استخدام معطيات العلوم والتقنية في غير طاعة الله – فضلا عن سوء توظيفهما في العديد من صور الفساد المنتشرة في الأرض اليوم (النجار، 1988م، 72 - 73).

وشيء آخر للإسلام كان له أثر كبير في الحياة العقلية، وهو أنه سلك في دعوته إلى الإيمان بالله وصفاته من علم وقدرة ووحدانية، مسلكا يثير العقل، وهو الدعوة إلى النظر إلى ما في العالم من ظواهر، قال تعالى: {أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ} [الأعراف: 185].

وقد كانت الحركات (الدينية والتاريخية والفلسفية والطبيعية) جميعا تتساند ويعاون بعضها بعضا، فأصحاب المذاهب الدينية اعتمدوا في تعاليمهم على الفلسفة وتعاليم الكتاب والسنة، والمفسرون والمحدثون والفقهاء كانوا يستعينون بالشعر والأدب على تفهم معاني القرآن والحديث، والمؤرخون والقصاص يستمدون بعض معلوماتهم من القرآن والحديث، وهكذا، وقلَّ أن تجد في هذا العصر ما نسميه الآن تخصصا، فليس هناك عالم بالتفسير فقط، أو الحديث فقط، لأن هذا الدور إنما يكون بعد تنظيم البحث، وهو دور لم يصلوا إليه في هذا العصر. وكذلك كانت الدروس فيها تفسير، وفيها حديث، وفيها فقه، وفيها لغة، وفيها جدال ديني (أمين، 1969م، 163 - 164).

وامتاز الإسلام دون غيره من الأديان بإعلاء قيمة العقل والنظر والبحث العلمي، كما سبق وأشرنا في المرحلة السابقة، ويحمل تاريخ المسلمين الأوائل التعطش إلى المعرفة فأدى بهم إلى آفاق واسعة في مجال العلوم والكشوفات العلمية. وكان فهم علماء المسلمين للتوافق بين مخلوقات الله تعالى أو وحدة السنة واتساق الفطرة، هذا الفهم بالذات هو الذي حدد لهم

المنهج العلمي الصحيح وهداهم إلى تطبيقه (حلمي، 2005م، 51).

وإقرار مبدأ النسبية في امتلاك الحقيقة واحترام أدب الخلاف؛ من المبادئ التي تؤسس منهج المعرفة في الإسلام. والاجتهاد من حيث هو جهد بشري يعتمد الوسائل المتاحة، ويستثمر الخبرات الإنسانية الممكنة في مجال البحث العلمي، ويفرز بشكل طبيعي اختلافًا في وجهات نظر المجتهدين والباحثين لاختلاف مداركهم وفهومهم. ومع أن الشورى قد تقلل من درجة التباين والاختلاف وتخلق جو الانسجام والتقارب إلا أن إلغاء الاختلاف أمر متعذر وغير ممكن لمناقضته سنة الله في خلقه من جهة؛ ولأن الاختلاف سمة لازمة للبحث العلمي نفسه؛ لتفاوت الأدلة المعتمدة وتفاوت العلماء في إدراكها وكيفية استخدامها. وعلى سبيل المثال فقد اختلف الفقهاء الأربعة، كما حدث في العصر العباسي ـ وكان حتمًا أن يختلفوا ـ مع تقدير بعضهم لبعض لأسباب موضوعية. من ذلك أن بعضهم قد لا يبلغه الحديث الذي بلغ غيره فيعمل بموجب غيره من الأدلة، وقد يبلغه الحديث فلا يطمئن إلى صحته فيخالف بذلك غيره، وقد يبلغه الحديث ولا يدرك معناه؛ لغرابة لفظه أو احتماله أكثر من معنى أو لكونه منسوخًا..... إلى غير ذلك من الأسباب العلمية والموجبة للخلاف.

وليست المشكلة في الاختلاف في الرأي بقدر ما هي في التعصب للرأي الواحد مع إنكار غيره، وفق تأكيد (أمزيان، 1998م، 123)، وهنا يحتاج الباحث إلى أن يتعلم أدب الخلاف ما دام الوفاق متعذرًا من الناحية العلمية. ولقد كان الفقهاء من أئمة المذاهب يختلفون فلا ينكر بعضهم على بعض، وكانوا يصوبون المصيب، ويستغفرون للمخطئ، ويحسنون الظن بالجميع، ويسلمون بقضاء القضاة على أي مذهب كانوا، ويعمل القضاة بخلاف مذاهبهم عند الحاجة من غير إحساس بالحرج...، وكثيرًا ما كانوا يصدرون اختياراتهم بنحو قولهم: هذا أحوط أو أحسن، أو هذا ما ينبغي، أو نكره هذا، أو لا يعجبني، فلا تضيّق ولا اتهام ولا حجر على رأي.

وقد روى الراغب الأصفهاني ما يؤيد هذا السياق، من خلال حادثة جمعت متكلمين، حيث يقول: "... اجتمع متكلمان، فقال أحدهما: هل لك في المناظرة؟ فقال: على شرائط ألا تغضب، ولا تعجب، ولا تشغبن ولا تحكم، ولا تقبل على غيري وأنا أكلمك، ولا تجعل الدعوى دليلا، ولا تجوز لنفسك تأويل مثلها على مذهبي، وعلى أن تؤثر التصادق، وتنقاد للتعارف، وعلى أن كلا منا يبغي على أن الحق ضالته والرشد غايته ...". (الأصفهاني، 1999م، 1/ 87). والمتأمل في هذه الأقوال الجامعة يتجلى له الروح العلمية الصحيحة التي كان لها أكبر الأثر في أسلوب الكثيرين من الفلاسفة والعلماء، مما جعل هؤلاء يتوخون في كتاباتهم الحقيقة، والوصول إلى الحق، ويلجؤون في سبيل ذلك إلى السير على أساس علمي دقيق.

وقد ثبت أن المسلك الذي اتبعه العلماء المسلمون في تنقية الحديث وتمييز صحيحه من موضوعه، قد أثر إلى حد في أساليب العلماء؛ إذ أبان لهم أهمية اتباع الطرق التي تؤدي إلى الحق، كما أوضح لهم منهاجا دقيقا للسير بموجبه للوصول على الحقيقة وإلى الصحيح من الوقائع والأخبار والأقوال، وكذلك كان للأساليب التي اتبعها علماء الحديث فضل كبير في التاريخ، وأصبحت القواعد التي ساروا عليها في تحري الحقيقة هي المعول عليها لدى المؤرخين المعاصرين، ومحل تقديرهم وإعجابهم (طوقان، 1990م، 86 - 87).

وهذا يقودنا إلى التأكيد بأن هناك علوما خاصة بالمسلمين وحدهم، لم ينقلوا فيها عن أحد ممن سبقهم، كما أنهم تفردوا فيها لأنها تتصل بالعقيدة الإسلامية، كالتوحيد والفقه وعلوم التفسير والحديث ومقارنة الأديان والتاريخ الإسلامي، فضلا عن علوم اللغة من نحو وصرف وأدب وبلاغة وعروض. أما العلوم التي نقلوها عن اليونان ثم أضافوا إليها وأسهموا في تقدمها وكان لهم الفضل في توضيح مناهجها فهي أكثر من أن تحصى، وهي أكثر حضورا في عصر الدولة العباسية أكثر منه في أي عصر، وسيتم الإشارة إليها في موضعه عند الحديث عن هذه المرحلة.

المرحلة الثالثة: عصر الدولة العباسية:

يمكن اعتبار هذا العصر هو العصر الذهبي بالنسبة لانفتاح الفكر الإسلامي على علوم الأمم الأخرى، وتبعا لذلك فقد حدثت للبحث العلمي نقلة نوعية كبيرة وتطور ملموس، كما دخل التخصص الدقيق للعلماء المسلمين حيز التنفيذ، مع ظهور أسس وقواعد العلوم وميلها نحو التخصص، وقد كانت هذه المرحلة من الخصوبة والثراء والتلاقح مع علوم الأمم الأخرى، ما يجعل المتابع يدهش من طبيعة الشغف الذي أصبح سمة هذا العصر، وخاصة في فترة قوة الدولة العباسية، والتي دامت زهاء ثمانية قرون في شقيها القوي والضعيف.

ولعل من أسباب التقدم العلمي الذي أحرزته الحضارة الإسلامية سواء من حيث المنهج أو الموضوع، هو رفض علماء ومفكري الإسلام لمنطق أرسطو الصوري ونظريته في القياس، لارتباطه الوثيق بميتافيزيقا اليونان الوثنية من ناحية، وبسبب آثاره السلبية بالنسبة للتقدم العلمي، حيث لا يساعد هذا المنطق على إضافة الجديد إلى علم الإنسان، فكان رفض المسلمين ونقضهم لهذا المنطق، من العوامل الهامة التي مكنتهم من

الوصول إلى المنهج العلمي التجريبي ومناهج الاستنباط الصحيحة في حينة.

بهذا تكتسب الموضوعية العلمية أيضاً لأول مرة صفة المنهجية بحيث يمكن القول بأنها (موضوعية منهجية) تعرف جيدا حدود العلاقة بين الذات والموضوع، وهو ما عبر عنه الحسن بن الهيثم، أحد مؤسسي المنهج التجريبي في عصر النهضة الإسلامية، بقوله، نقلا عن (فروخ، 1970م، 366)" إني لم أزل منذ الصبا مروّياً في اعتقادات الناس المختلفة وتمسك كل منهم بمعتقده من الرأي فكنت متشككاً في جميعه، موقنا بأن الحق واحد، وأن الاختلاف فيه إنما هو من جهة السلوك إليه، فلما كملت لإدراك الأمور العقلية انقطعت إلى طلب معدن العلم، ووجهت رغبتي وحرصي إلى إدراك ما به تنكشف تمويهات الظنون وتنقشع غيابات المتشكك المفتون، وبعثت عزيمتي إلى تحصيل الرأي المقرب إلى الله... فرأيت أنني لا أصل إلى الحق إلا من آراء يكون عنصرها الأمور الحسية وصورتها الأمور العقلية".

ومقدمات كتب العلماء العرب زاخرة بالإرشادات والحِكَم والتوجيهات التي تتضمن مناهجهم في البحث وطريقتهم في التفكير. يقول الجاحظ في مقدمة كتاب الحيوان: "جنّبك الله الشّبهة، وعصمك من الحيرة، وجعل بينك وبين المعرفة نسبا، وبينك وبين الصدق سببا، وحبّب إليك التثبّت، وزيّن في عينك الإنصاف، وأذاقك حلاوة التقوى، وأشعر قلبك عزّ الحقّ، وأودع صدرك برد اليقين وطرد عنك ذلّ اليأس، وعرّفك ما في الباطل من الذلّة، وما في الجهل من القلّة". (الجاحظ، 2003م، 1/ 7).

لقد استند منهج البحث عند المسلمين على الملاحظة والتجربة والغرض العلمي، وعبروا عن الكميات العلمية بمقاديرها كلما أمكن مثل: محيط الأرض، والكثافة، وتحديد الاتجاهات وغيرها. وقطعوا شوطا كبيرا في الوصول إلى التعميم الذي يضم الأشياء والحالات الجزئية المتشابهة في قانون واحد.

بالإضافة إلى ذلك فقد فهم المسلمون طبيعة الغرض العلمي وأنزلوه في مكانته العلمية اللائقة، فحققوا بذلك إمكانية الربط بين التصور العقلي في مرحلة فرض الفروض وبين التجربة كمجال للتحقق من صدقها، وهو ما يعبر عنه في المنهج العلمي الحديث بمرحلة الفروض الوصفية المثمرة التي تضيف الجديد إلى العلم. وبذلك فقد تكامل لدى علماء المسلمين الفهم الكامل لطبيعة مراحل الدليل الاستقرائي من ملاحظة وتجربة وفرض الفروض وهو ما يعبر عنه بتأسيس النظرية العلمية.

وقد أدرك المسلمون بروح ثاقبة أن منهج الاستقراء لا يقوى بمفرده على الوفاء بمتطلبات النظرية العلمية المتكاملة، لذا فقد استعانوا بالمنهج الرياضي في التعبير عن نتائج التجربة بطريقة كمية مختصرة دقيقة. أدت إلى تطور مباحث العلوم الطبيعية المختلفة، وحقق نتائج طابقت إلى حد بعيد نتائج العلم في العصر الحديث. (الجندي، 1996م، 65).

وقد قال الإمام الرازي المفسر رحمه الله تعالى: "روي أن عمر بن الحسام كان يقرأ كتاب المجسطي (لمؤلفه بطليموس في القرن الثاني قبل الميلاد)، على (أستاذه) عمر الأبهري، فقال بعض الفقهاء يوماً: ما الذي تقرؤونه؟ فقال أفسر آية من القرآن، وهي قوله تعالى {أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ} [ق: 6]، فأنا أفسر كيفية بنيانها، ولقد صدق الأبهري فيما قال، فإن كل من كان أكثر توغلاً في بحار مخلوقات الله تعالى كان أكثر علماً بجلال الله تعالى وعظمته (الرازي، 1999م، 4/ 154).

ونخلص مما سبق إلى أن إنجازات علماء المسلمين في مجالات العلم الطبيعي المختلفة لم تجئ من فراغ، وإنما جاءت نتيجة درايتهم الكاملة بمنهج العلم الاستقرائي القائم على استخدام التجربة المخبرية الدقيقة، حيث يعتبر المسلمون هم أول من اعتمد على التجربة وأسموها (الاعتبار)، وقد جاءت مناهجهم معبرة عن ذلك أصدق تعبير. وهو ما عبر عنه (محمود، 2022م، 43). عند حديثه عن منهج جابر بن حيان، بأنه منهج لو كتب بلغة العصر لجاء معبرا أصدق تعبير عن الطريقة العلمية الحديثة. وهذا يقودنا إلى القول بأن: الحضارة الإسلامية عالمية المنبع عالمية المصب، بمعنى أن المسلمين استفادوا من الحضارات السابقة، واستوعبوا ما استفادوه ثم قدموه للعالم عطاء حضاريا فذا.

والمتابع لتطور البحث العلمي يجد أنه في لحظة تاريخية معينة، كثيرا ما تسود أفكار وتنتشر، فيظن الناس أنها حقيقة، لكثرة ما ترددت في الأذهان، وكتبت على صفحات الكتب، وترددت على الألسنة، ومن هذه الأفكار الفكرة الذائعة عن ظهور المنهج التجريبي العلمي في الغرب، وإلحاقه بأوروبا منذ عصر النهضة على يد روجر بيكون وسميه فرنسيس بيكون وجون سيتورات مل، ولكن يجب أن ينسب الفضل إلى أهله وتصحح هذا الفكرة الخاطئة الشائعة، فنهضة الغرب لم تبدأ من فراغ، ولكنها قامت على أكتاف وجهود علماء المسلمين الذين سبقوهم إلى اكتشاف المنهج التجريبي العلمي وأقاموا قواعده وأصوله، ولم يكن من فضل لبيكون ومل إلا ترجمته ونسبته إليهما بعد السطو عليه (حلمي، 2005م، 47). ورغم وجاهة طرح حلمي، إلا إننا لا يمكن أن نقبل بهذا الطرح على إطلاقه،

وخاصة فيما يتعلق بسلب الآخرين جهودهم، وأنهم لا جهد لهم إلا مجرد النقل فقط، وهذا ما نعيبه نحن على الغربيين في تعاملهم مع إنتاجنا الحضاري كمسلمين. ومع هذا يمكننا القول مع (النشار، 1984م، 356- 357) بأنه ليست هناك وجهة نظر من وجهات العلم الأوروبي لم يكن للثقافة الإسلامية تأثير أساسي عليها، ولكن أهم أثر للثقافة الإسلامية في العلم الأوروبي هو تأثيره في العلم الطبيعي والروح العلمية، وهما القوتان المميزتان للعلم الحديث والمصدران الساميان لازدهاره. وأنه لولا جهود العرب والمسلمين لبدأت النهضة الأوروبية ـ في القرن الرابع عشر ـ من النقطة التي بدأ منها العرب نهضتهم العلمية في القرن الثامن للميلاد.

إن الحضارة العربية الإسلامية ظاهرة طبيعية ليس فيها شذوذ أو خروج عن منطق التاريخ، فلم يكن بد من قيامها حين قامت، وقد قام أصحابها العرب والمسلمون بدورهم في تقدم الفكر وتطوره بأقصى الحماسة والفهم، وهم لم يكونوا مجرد ناقلين، كما قال بعض المؤرخين، بل كان في نقلهم روحا وحياة، وكذلك لم يكن نقلا ميكانيكيا، فهو أبعد ما يكون عن الجمود، ويرى كثير من الباحثين اللامعين أن قيام العرب بشرح الفلسفة الكلاسيكية أمر جدير بالنظر والاعتبار، وهو أمر لا بد منه قبل أن تتهيأ العقول للتفكير العلمي الحديث.

إن أسلوب البحث عند أسلافنا أصله يوناني، أو بالأحرى مستمد من أصل يوناني. ولا يخفى أن ليس في هذا ما يغير أو ينقص من قدر المسلمين، فالإنسان دائما وأبدا يأخذ ما عمله غيره ويزيد عليه إذا استطاع. وزيادات المسلمين في هذا الميدان أساسية وذات قيمة وأهمية (طوقان، 1990م، 90). وهناك من زعم نفس الزعم السابق من أن العلماء العرب والمسلمين أخذوا علومهم عن اليونان والفرس والهنود، واكتفوا بالشرح والتعليق. ولكن الحقيقة أن المسلمين أخذوا بالفعل عن باقي الحضارات، غير أنهم أخضعوا ما أخذوه إلى منهج ينبع من عقلانية إسلامية خاصة (الجابري، إدريس، 2009م، 147 - 148).

ويشهد استقراء تاريخ الفكر البشري بأنَّ علماء الحضارة الإسلامية كانوا أسبق من الغربيين إلى نقض منطق أرسطو النظري واتباع المنهج التجريبي قبل بيكون بعدة قرون، فقد استطاعوا أن يميزوا بين طبيعة الظواهر العقلية الخالصة من جهة، والظواهر المادية الحسية من جهة أخرى، وفطنوا إلى أن الوسيلة أو الأداة التي تستخدم في هذه الظواهر يجب أن تناسب طبيعة كل منها، ويعتبر شيخ الإسلام ابن تيمية من أوائل العلماء المسلمين الذين نقدوا منطق أرسطو الصوري، حيث هاجمه بعنف في كتابه (نقد المنطق) ودعا إلى الاستقراء الحسي الذي يصلح للبحث في الظواهر الكونية ويوصل إلى معارف جديدة.

والنتيجة التي نستطيع أن نصل إليها في هذا البحث، والتي تتفق مع ما توصل إليه (النشار، 1984م، 356) هو أن مفكري الإسلام الممثلين لروح الإسلام لم يقبلوا المنطق الأرسطوطاليسي، لأنه يقوم على المنهج القياسي، ولا يعترف بالمنهج الاستقرائي أو التجريبي. والنتيجة الأخرى، هي أن المسلمين هم من وضعوا هذا المنهج بجميع عناصره، ولقد كانت إسبانيا هي المعبر الذي انتقل خلاله العلم الإسلامي إلى أوروبا.

لقد اتجه علماء الحضارة الإسلامية إلى المنهج التجريبي الاستقرائي عن خبرة ودراية بأصوله وقواعده، وأحرزوا على أساسه تقدمًا ملموسًا في حركة التطوير العلمي والتقني، فهذا هو الحسن بن الهيثم -على سبيل المثال لا الحصر- يصف ملامح المنهج التجريبي الاستقرائي الذي اتبعه في بحث ظاهرة الإبصار بقوله: "والبحث عن هذا المعنى مع غموضه وصعوبة الطريق إلى معرفة حقيقته مركب من العلوم الطبيعية والعلوم التعليمية، أما تعلقه بالعلم الطبيعي فلأن الإبصار أحد الحواس، والحواس من الأمور الطبيعية. وأما تعلقه بالعلوم التعليمية فلأن البصر يدرك الشكل والوضع والعظم والحركة والسكون، وله مع ذلك تخصيص بالسموت المستقيمة، والبحث عن هذه المعاني إنما يكون بالعلوم التعليمية. فبحق صار البحث في هذا المعنى مركبا من العلوم الطبيعية والعلوم التعليمية" (ابن الهيثم، 1983، 60).

والمدقق في عبارات ابن الهيثم، يتبين له أن هذا النص يوضِّح بما لا يدع مجالاً للشك أنّ القواعد العامة التي وضعها ابن الهيثم لمنهج الاستقراء تتميز عن قواعد المنهج البيكوني بأنّها ليست مجموعة من التعليمات والإرشادات التي تلتزم ترتيبًا محددًا لا ينبغي تجاوزه؛ مما يضفي عليها قدرًا كافيًا من المرونة يحول دون جمودها أمام حركة العلم وتطوره. كذلك تعكس عبارات ابن الهيثم كثيرًا من خصائص العلم التجريبي ومقومات نجاح البحث العلمي التي افتقدها كل من (المنطق الأرسطي) و(المنهج البيكوني) وتوضح المقارنة أن التجريبية خطوة مقصودة في أسلوب البحث العلمي عند علماء المسلمين.

من ناحية أخرى يتضح من القراءة المتأنية للنصوص العلمية في التراث الإسلامي أنّ الفضل في اكتشاف المنهج العلمي (التجريبي الاستقرائي) لا ينسب إلى عالم إسلامي بعينه على غرار ما يقال عادة عن منهج أرسطو أو بيكون أو ديكارت، بل إنه يعزى إلى علماء كثيرين مهدوا له في مختلف فروع العلم، فها هو جابر بن حيان يلقي مزيدًا من الضوء على خصائص المنهج التجريبي الذي اتبعه فيؤكد أنّ لكل صنعة أساليبها الفنية،

ويحذر من الإفراط في الثقة بنتائج تجاربه بالرغم من موضوعيته في البحث العلمي فيقول: "إنّا نذكر في هذه الكتب خواص ما رأيناه فقط -دون ما سمعناه أو قيل لنا أو قرأناه- بعد أن امتحناه وجربناه، وما استخرجناه نحن قايسناه على أقوال هؤلاء" ويقول أيضًا: "ليس لأحد أن يدّعي بالحق أنّه ليس في الغائب إلا مثل ما شاهد أوفي الماضي والمستقبل إلا مثل ما في الآن". (قنديلجي، 2019م، 23). إنّ التكامل إذن، جوهر لا عرض طارئ على العقلانية الإسلامية الأصيلة، فالعقل الذي تشكل ابتداء من الوحي كان العلم الدقيق كالطب والحساب داخلاً في أركانه.

وقد استطاع العلماء المسلمون الجمع بين فروع العلم والأدب وفاقوا في ذلك غيرهم، فنجد بين علمائهم من وقف على روائع الأدب وغاص في دقائق العلم وجمع بينهما. ومن يطلع على كتاب الخوارزمي في الجبر يجد أن المؤلف جمع بين الجبر والأدب، وجعل أحدهما متمما للآخر، فالمادة الرياضية مفرغة في أسلوب أخّاذ لا ركاكة فيه ولا تعقيد، ينم عن أدب رفيع وإحاطة بدقائق اللغة. ونظرة في كتب البيروني تبين كيف يتعانق الأدب والرياضيات بما فيهما الفلك والطبيعيات، وليس أدل على ذلك من كتاب التفهيم لأوائل صناعة التنجيم للبيروني. فالأسلوب في هذا الكتاب سلس خال من الالتواء يخرج منه القارئ بثروتين: أدبية، وعلمية. ويشعر بلذتين: لذة الأسلوب الأدبي، ولذة المادة العلمية.

ومنهم من جمع في كتبه بين الأدب والنواحي الأخرى من المعرفة؛ كالفلسفة، والعلوم، والتاريخ، وغيرها. فالجاحظ مثلا: كان له فضل على الأدب والفلسفة جميعا، ففي الأدب كان فضله أن أغزر معانيه، وجعل له موضوعا بعد أن كاد يكون شكلا بحتا، فتقرأ الرسالة من رسائله فتجدها ناصعة الأسلوب غزيرة المعنى، لها موضوع ولها شكل، هذه رسالة في القِيان، وهذه رسالة في المعلمين، وهذه رسالة في الغناء، حتى رسالته في الهجاء استطاع أن يجعل لها موضوعا علميا، بل لعلها أحسن رسائله لمن شاء أن يعرف أن العقلية العلمية والأدبية والفلسفية كانت تشغل الناس في عصر الجاحظ. وفضله على الفلسفة أنه صاغها صياغة أدبية قريبة من الأذهان، فهو يمزج كلام أرسطو بأشعار الجاهليين، وقول الفلاسفة بأقوال الأدباء، ويخرج من ذلك كله إلى نتيجة تلذ القارئ، وتغذي العقل. وكذلك أبو حيان التوحيدي، امتاز في الجمع بين الأدب والحكمة وأصناف العلوم والمعارف، وقد وفق في ذلك، مع المحافظة على الحقيقة في أصدق مظاهرها (طوقان، 1990م، 78).

ونلاحظ هنا أن العالم المسلم سواء ظهر نبوغه في مجال الطب، أو الرياضيات، أو اللغة أو التاريخ، أو العمران، لم تكن تنفصل لديه المعرفة الفقهية الشرعية عن المعرفة العلمية، أو بمعنى آخر، كان جامعا للمعرفة بعلوم الدين وعلوم الدنيا، وأمامنا الكثير من علماء الحضارة الإسلامية كان الواحد منهم متفقها في الدين فهو عالم وفقيه، وأيضا نابغا في الطب أو الرياضيات أو غيرها(زيدان، 1969م، 38)، وكان للمعرفة العلمية الشرعية مركز الصدارة والتوجيه، لدرجة أن وصف العالِم أو العلماء "ارتبط أصلا بالعالم الفقيه الدارس للشرع وعلومه" (الغزالي، 1957م، 33).

ولم تكن تجريبية جابر بن حيان مجرد معرفة بالخبرة، بل كانت عبارة عن ازدواج بين العقل والعمل، كما ينص المنهج التجريبي الحديث الذي صاغه علماء الغرب المحدثين، حيث يمر المنهج العلمي التجريبي أو الاستقرائي بمراحل ثلاث: الأولى هي مرحلة البحث، والثانية هي مرحلة الكشف، والثالثة هي مرحلة البرهان. فالجانب العقلي يتمثل في المرحلة الثانية وهي الكشف، ويتمثل الجانب التجريبي في المرحلتين الأولى والثالثة، وهما البحث والبرهان.

ويصرح جابر بن حيان بأن منهجه العلمي التجريبي قد ضمّنه بصورة كلية في كتابه (الأصول): "قد عملته بيدي وبعقلي من قبل، وبحثت عنه حتى صحّ، وامتحنته فما كذب". وهذا وصف دقيق لما يقوم به الباحث العلمي الحديث، إذ أن جابراً قد زاوج بين الفرض العقلي وبين التجربة التي تأتي لتأييده أو تكذيبه. ويجعل جابر الدُربة (التجربة) محكاً للتميز بين العالِم وغير العالِم، فالأول يصل بالتجربة إلى نتائج جديدة، والثاني يعطِّل البحث العلمي، يقول جابر بن حيان في كتاب الخواص، المقالة الثانية والثلاثون، نقلا عن (حربي، 2005م، 73 - 74).: "فمن كان دَرِبَاً كان عالِماً حقاً، ومن لم يكن دَرِبَاً لم يكن عالِماً. وحسبك بالدربة في جميع الصنائع أن الصانع الدَرِب يحذق، وغير الدَرِب يعطل".

ويصنف الخوارزمي العلماء والباحثين - كلٌ في تخصصه - إلى ثلاثة أصناف لا يخرج أي باحث علمي عن أحدهم، وهم: "إما رجل سبق إلى ما لم يكن مستخرجاً قبله فورّثه من بعده؛ وإما رجل شرح مما أبقى الأولون ما كان مستغلقاً فأوضح طريقه وسهل مسلكه وقرب مأخذه؛ وإما رجل وجد في بعض الكتب خللاً فلم شعثه وأقام أوده وأحسن الظن بصاحبه غير راد عليه ولا مفتخر بذلك من فعل نفسه" (الخوارزمي، 2009م، 22).

وفي العلوم خطا العلماء المسلمون خطوات فاصلة، فبعد أن اطلعوا على ما تركه القدماء، نقحوه وشرحوه، وأضافوا إليه إضافات مهمة وأساسية تدل على الفهم الصحيح وقوة الابتكار. وكان ابن سيناء يسير في أسلوبه على أساس منطقي؛

لأن المنطق على رأيه: الألة العاصمة للذهن من الخطأ فيما نتصوره ونصدق به، والموصلة إلى الاعتقاد الحق بإعطاء أسبابه ونهج سبيله. وفوق ذلك فأسلوبه علمي دقيق، يتجلى هذا في تعريفه الحكمة وتقسيمها، جاعلا المنطق آلة لها، فعلى أصوله سار، وعلى قواعده اعتمد في بحثه ودروسه. وكذلك امتاز أسلوب الفارابي بالإيجاز والعمق، والفارابي مبتكر لا مقلد، فقد أنتج عقله الخصب نظريات جديدة فيها ابتكار وفيها عمق (طوقان، 1990م، 79). وكان الإمام الشافعي قبل ذلك قد صاغ علم الأصول في منهج عام مستقل صادر عن فكر خاص، وهو اتجاه عقلي علمي يعنى بضبط الاستدلالات التفصيلية بأصول تجمعها.

ولقد أدرك ابن الهيثم الطريقة المثلى وقال بالأخذ بالاستقراء والقياس والتمثيل، وضرورة الاعتماد على المواقع الموجودة على المنوال المتبع في البحوث العلمية الحديثة: ففي كتاب (المناظر) عند البحث مثلا في كيفية الإبصار واختلاف العلماء فيه يقول: "ونبتدئ في البحث باستقراء الموجودات وتصفح أحوال المبصرات وتمييز خواص الجزئيات، ونلتقط بالاستقراء ما يخص البصر في حال الإبصار، وما هو مطرد لا يتغير وظاهر لا يشتبه من كيفية الإحساس، ثم نترقى في البحث والمقاييس على التدريج والتدريب مع انتقاد المقدمات والتحفظ في النتائج، ونجعل غرضنا في جميع ما نستقرئه ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى، ونتحرى في سائر ما نميزه وننتقده طلب الحق لا الميل مع الآراء، فلعلنا ننتهي بهذا الطريق إلى الحق الذي به يثلج الصدر، ونصل بالتدرج والتلطف إلى الغاية التي عندها يقع اليقين، ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التي يزول معها الخلاف وتنحسم بها مواد الشبهات، وما نحن، مع جميع ذلك، براء مما هو في طبيعة الإنسان من كدر البشرية، ولكنا نجتهد بقدر ما هو لنا من القوة الإنسانية، ومن الله نستمد العون في جميع الأمور". (ابن الهيثم، 1983م، 62).

وهذا عمر بن بحر الجاحظ، يذكر أن إدراك الحقائق الغائبة عنا تأتي من طريقين:

الأول: ما غاب عنا مما قد رآه غيرنا بالعيان. فسبيل العلم بها الأخبار الصحيحة المتحرى عنها سندا ومتنا، وهي على نوعين: متواترة تفيدنا اليقين، وآحاد تفيد الظن.

الثاني: ما غاب عنا مما لا يدركه أحد بعيان. وسبيل العلم بها هو تتبع علاقاتها ومسبباتها التي تدل عليها. والدلائل التي ترفع من شأنها، وكلما زاد الدليل قوة، قوي تأثيرها إلى غاية تزول معها كل الشكوك عن القلوب (الجاحظ، 1964م، 124). والحديث عن الطريق الثاني المذكور عند الجاحظ يصيب بدقة منهج الاستقراء المعاصر المنبني على عنصري الملاحظة والتجربة.

ويمكننا أن نختصر الحديث حول سبل بناء الحقائق والبرهنة عليها عند المسلمين، فنقول: إن علماء المسلمين بنوا منهجهم في تحري الحقائق، واكتشاف المزيد منها على طريقين:

الأول: نقد الرواية: فإن كانت الحقيقة العلمية وردت بالأخبار السمعية، يكون نقدها سندا ومتنا. حتى عرفت الأمة الإسلامية بأمة الإسناد لدقة التحري والضبط في تلقي الأخبار وتحملها.

الثاني: نقد الأدلة المنطقية المستخدمة في تقرير قوانين الترابط بين الأشياء، إن كان سبيل ورود الحقيقة الادعاء العلمي. (بن الصديق، 2013، 49).

وتدلنا قراءة التراث الإسلامي على أن المسلك الذي اتبعه علماء الأصول وعلماء الحديث في الوصول إلى الصحيح من الوقائع والأخبار والأقوال قد انسحب على أسلوب التفكير والتجريب في البحث العلمي، فنرى -على سبيل المثال- أن الحسن بن الهيثم يستعمل لفظ الاعتبار وهو لفظ قرآني ليدل على الاستقراء التجريبي أو الاستنباط العقلي، ويستخدم قياس الشبه في شرحه لتفسير عملية الإبصار وإدراك المرئيات، كذلك نجد أبا بكر الرازي يستخدم الأصول الثلاثة: الإجماع، والاستقراء، والقياس في تعامله مع المجهول، فهو يقول نقلا عن (باشا، 1987م، 16): "إنّا لما رأينا لهذه الجواهر أفاعيل عجيبة لا تبلغ عقولنا معرفة سببها الكامل لم نر أن نطرح كل شيء لا تدركه ولا تبلغه عقولنا؛ لأنّ في ذلك سقوط جل المنافع عنا، بل نضيف إلى ذلك ما أدركناه بالتجارب وشهد لنا الناس به، ولا نحل شيئًا من ذلك محل الثقة إلا بعد الامتحان والتجربة له... ما اجتمع عليه الأطباء وشهد عليه القياس وعضدته التجربة فليكن أمامك".

وهكذا نجد أن علماء الحضارة الإسلامية قد تشربوا تعاليم دينهم الحنيف واصطنعوا لنفسهم منهجًا علميًّا إسلاميًّا تجاوزوا به حدود الآراء الفلسفية التي تميزت بها علوم الإغريق، وانتقلوا إلى إجراء التجارب واستخلاص النتائج بكل مقومات الباحث المدقق، مدركين أن لمنهجهم الجديد شروطًا وعناصر نظرية وعملية وإيمانية يجب الإلمام بها، وتكشف قراءتنا المتأنية لعلوم التراث الإسلامي عن سبق علماء المسلمين إلى تحديد عناصر المنهج العلمي بما يتفق مع كثير من المسميات والمصطلحات الجديدة التي يتداولها اليوم علماء المنهجية العلمية مثل أنواع الملاحظة والتجربة (الاستطلاعية الضابطة الحاسمة) ومقومات الفرض العلمي، واستخدام الخيال العلمي في المماثلة بين الظواهر المختلفة والكشف عن الوحدة التي تربط بين وقائع متناثرة (باشا، 2017م، 37).

وليس هناك من شك في أنّ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى تعتبر حلقة هامة في تاريخ العلم والحضارة بما قدمه علماؤها من تأسيس لمنهج علمي سليم ساعد على

تطوير معارف جديدة، لكننا في عالمنا الإسلامي لا نزال بحاجة ماسة إلى إعادة قراءة تراثنا بأسلوب العصر ومصطلحاته، ليس فقط من أجل تحديث الثقافة العلمية الإسلامية، بل أيضًا من أجل تطوير طرق التفكير العلمي طبقًا لخصائص التصور الإسلامي ومقوماته.

المرحلة الرابعة: عصر الدولة العثمانية:

يعتبر هذا العصر، والذي امتد لستة قرون تقريبا، هو العصر الذي بدأ فيه التراجع في جانب الفكر الإسلامي الذي انعكس بدوره على البحث العلمي، وكان هذا العصر امتدادا للعصر العباسي الثاني (عصر الضعف)، الذي بدأ فيه مؤشر الانحدار في جوانب كثيرة في الدولة العباسية ومن ضمن ذلك الدخول في عصر الجمود والتقليد، الذي لم ينته بسقوط الدولة العباسية ولا بسقوط الدولة العثمانية بل استمر حتى العصر الحديث، وقد ترافق ذلك مع فترة النهضة العلمية للغرب.

والمتأمل يجد أن الأمم توظِّف ما يكون متاحاً لها من المعرفة، بمقدار ما تتصف به من تقدم أو تخلف، فالأمم في حال تخلفها لا تدرك قيمة ما تملكه من تراث حضاري، فتعجز عن توظيفه لصالحها، هكذا كانت أوروبا في قرون تخلفها بعد انهيار الدولة الرومانية الغربية والشرقية، فلم تدرك قيمة التراث اليوناني الغني في الطب والرياضيات والفلسفة والهندسة والأدب والشعر. وعندما كان المسلمون في حالة نهوض حضاري، أدركوا قيمة ما كان بأيديهم وأيدي غيرهم من الأوروبيين والهنود والفرس وغيرهم، فأسرعوا في النقل والترجمة، ونخلوا العلوم وكشفوا عنها وحققوها، فقبلوا منها ورفضوا، وطوروا وحدَّثوا. وبالمقابل عجز المسلمون حين تخلفوا عن توظيف ما في أيديهم من تراثهم، ولم يقدِّروا قيمة الإنجازات التي حققها علماؤهم حق قدرها. فلما دالت الأيام ونهضت أوروبا وجدت أنَّ المسلمين قد أهدوا إلى البشرية ما كان بأيديهم من تراث اليونان، واكتشفوا كذلك ما كان المسلمون قد طوروه وأنجزوه مِنْ سَبْق في مجالات العلوم المختلفة، في الوقت الذي عجز المسلمون عن توظيف كل ذلك نتيجة لتخلفهم. (ملكاوي، 2016م، 173، 174).

ورغم أهمية إحياء التراث، وتحقيق المخطوط منه، ونشره وتيسير الاستفادة منه بالشرح أو الاختصار، إلا إنه ليس بديلاً عن الاجتهاد في إنشاء علوم جديدة مستنبطة من نصوص القرآن والسنة، فليس صحيحاً أنَّ السابق لم يترك شيئاً للاحق، إلا حين تصل الأمّة وعلماؤها إلى حالة العجز عن الاجتهاد والإبداع والعطاء المتجدد، ومن ثم الدخول في حالة تتمثل في تكرار ما أنتجه الأوائل من خلال الشروح والحواشي والهوامش، والانشغال بتحويل العلوم إلى منظومات شعرية، ثم شرحها، ثم اختصارها، وهكذا، وهي حالة تعبر عن تعطل حيوية الأمّة وانعدام وزنها بين الأمم، وتوقف إسهامها في العطاء الفكري والحضاري، ووصولها إلى حالة الغثائية التي حذر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إننا لا نشك أن جزءاً مهماً من التراث الذي خلفه مفكرون وعلماء نبغوا في ظل البيئة الثقافية التي خلقت شروط نهضتها الحضارة الإسلامية، لا نشك أنه لون من الترفيه العقلي الخالي من عناصر الحياة ومجرد من مقومات التفكير العلمي الجاد القادر على العطاء والاستمرارية في الحياة. لابد إذن من الاعتراف بالدور السلبي الذي قام به جزء من تراثنا في توجيه الحياة الإسلامية وجهة سلبية تمامًا، والذي يتحمل جزءاً من المسؤولية في انحسار المد الحضاري للإسلام، ومن الخطأ أن نُبقِي على عناصر الضعف بدعوى الحفاظ على التراث وإحياء الموروث القديم. وعلى سبيل المثال فلنا في حركة المد الصوفي المنحرف الذي كان في كثير من الأحيان يتحالف مع المد الباطني الذي قاد المجتمع الإسلامي إلى السلبية والجمود، وفي مثاليات الفلاسفة ونزعات المتكلمين ومجادلاتهم التي جاوزت مجال الجدل في العقيدة إلى مجال المحاكمات السياسية، وفي المظاهر الفلكلورية والأدبيات الماجنة، خير شاهد على سلبية هذه المواقف في توجيه الحياة الإسلامية تلك الوجهة التي ورثنا عناصرها وما تزال أعراضها تطفو على ساحتنا الثقافية والاجتماعية المعاصرة (أمزيان، 1998م، 133).

لكن أفول عصور الاجتهاد والتجديد، وجنوح القوم إلى التقليد، وهيمنة سلطة التخصص التي فرضتها مقتضيات العصر، وضمور الأهمية التي كانت تولى للعلم والبحث العلمي، قد جعل عرى التكامل بين العلوم الإسلامية توشك أن تنقض عروة عروة، وتحل محلها لضيق الأفق في نفوس الباحثين أكثر من نزوة: ويكفي من ذلك أن كل تخصص يحسب أنه قد جمع العلم كله، وأنه الأصل الذي يُتبع ولا يتبع، ويُقصد ولا يَقصد، وأسقطت علوم بكاملها من تصنيفات العلوم الإسلامية الكلاسيكية المتكاملة، أو قلل من شأنها فيها، كعلوم الآلة والعلوم الدقيقة (عكيوي، 2009م، 7 - 8). كما غابت البحوث الأساسية والإبداعية، وظلت تسيطر على أنشطة أكثر الباحثين الجوانب الإجرائية، ولم يزل جلّ ما يؤلف مجرد مداخل أو مقدمات لا تمثل سوى صدى أو تكراراً لما يتمّ إنتاجه في الغرب.

وقد ساد في هذا العصر التقليد والجمود، إلى درجة أنه أصبح ظاهرة مستشرية في جميع المجالات المعرفية، وهذا ما جعل الإمام الشوكاني في بحثه عن التقليد كظاهرة معرفية، لا يقف عند حدّ إثبات أن التقليد جهل وليس بعلم، بل تعداه إلى التأكيد على مبدأين هامين هما:

أولاً: أهمية ومحورية الدليل في المنظومة المعرفية الإسلامية: وهذه نقطة جوهرية في إعادة صياغة العقلية الإسلامية عموماً، والفقهية على وجه الخصوص، هذه العقلية التي أصبحت في عصور التقليد والجمود تتعامل مع أقوال العلماء تخريجاً وقياساً دون النص الشرعي. من هنا أكد الإمام الشوكاني ارتباط العلم بالدليل، وأن الرجوع إلى الكتاب والسنة في مسائل الدين من مقتضيات المنهج العلمي السليم.

ثانياً: اختلال منهج المقلِّدة: وقد اعتمد في بيان ذلك طريقة الحوار المنطقي، متدرجاً معهم بما يسلمون به للوصول إلى نقطة الخلاف، فلا يسعهم إلا التسليم. وكثيراً ما كشفت هذه الحوارات أن تفكير المقلِّد لا يقوم على منهج سليم تتفق مقدماته مع نتائجه، بل يقوم عل التناقض، من جانبين:

- تناقض في منهج تفكيرهم ذاته: يتجلى في اعتراف المقلد أنه التزم التقليد - أخذ رأي الغير دون دليل - لأنه لا يعقل الحجة، ولكن إذا سئل عن سبب تقليده لعالم بعينه من جملة علماء الأمة في كل أمور دينه أجاب: لأنه أعلم من غيره. والسؤال المثار: من أين له معرفة العالم والأعلم، وهو مقر على نفسه أنه لا يطالب بالحجة، ولا يعقلها إذا جاءته. فهو يشهد بجوابه هذا على بطلان دعواه الأولى. (الشوكاني، 1977م، 317).

وأمر آخر، أن المقلد يعترف في كل مسألة من مسائل الفروع الذي هو مقلد فيها أنه لا يدري ما هو الحق فيها، لكن إذا أرشده البعض إلى أن التقليد غير جائز في دين الله أخذ في المخاصمة والاستدلال بجواز التقليد، فهلا أنزل نفسه -كما قال الشوكاني - في هذه المسألة الأصولية المتشعبة تلك المنزلة التي كان ينزلها في مسائل الفروع (الشوكاني، 1977م، 329-330، بتصرف).

وخلاصة تحليل الشوكاني لشخصية المقلّد العلمية أنه لا منهج له ولا منطق، وأن هذه المذاهب الفقهية كما قال: "قد صار كل واحد منها كالشريعة عند أهله، يذودون عنه كتاب الله وسنة رسوله ويجعلونه جسراً يدفعون به كل ما يخالفه كائناً ما كان" (الشرجبي، 1988م، 380).

وفي الطرف الآخر، فقد اقتصرت جامعات ما قبل القرن التاسع عشر في أوروبا على التراث الفكري والعلمي الذي انتقل إليها من العرب عبر جامعات الأندلس، وفي زحمة انشغالها بعملية نقل ذلك التراث وفهمه لم تدرك أوروبا أن تعرَّف الإنسان على نفسه وعلى العالم من حواليه يمكن أن يؤدي إلى قدر من المعرفة يستفاد منها في تطبيقات عملية. وعلى ذلك فإن البحث العلمي في صورته الراهنة قد ظهر في أوروبا في فترة متأخرة، ومنذ ظهوره تغير منهج الجامعات من حفظ التراث الموروث إلى تبني الأسلوب العلمي المبني على الملاحظة والاستنتاج، أو على التجربة والملاحظة والاستنتاج، وكان ذلك سببا في تحول جامعات القرن العشرين بصفة عامة إلى البحث العلمي، واعتباره رسالة الجامعة الأولى، إلا أن المبالغة في ذلك قد أضرت برسالة البحث العلمي ذاته وبرسالة الجامعة أيضا، فقد جعلت البحث العلمي مجرد وسيلة من وسائل الاسترزاق وإثبات الوجود، كما أدت إلى قدر من الإهمال للعملية التعليمية ذاتها (النجار، 1977م، 162).

ومع هذا الانحدار الفكري والتراجع الثقافي للفكر الإسلامي في هذا العصر، إلا أن هناك نماذج بارزة كان لها حضورها في الفكر الإسلامي وتطوير البحث العلمي، وإن تم ذلك بصورة فردية، ومن هؤلاء العلامة عبد الرحمن بن خلدون، الذي أخذ المفهوم القرآني للعُمران، وجعله عَلَماً على عِلْمٍ جديد يدرس حياة الناس وما يطرأ على هذه الحياة من تحولات وتبدلات، وما ينشأ فيها من علاقات ومؤسسات، سمَّاه علمَ العُمران البشري، أو علم الاجتماع، أو حالة الحضارة. وتميَّز ابن خلدون في فهمه للتاريخ والاجتماع البشري، وعلاقته بالكون الطبيعي وسنن الوجود، بمزايا واضحة تماماً، بالقياس إلى غيره ممن عالج هذه الموضوعات. فالمجتمع الإنساني كان موضع تأمل ونظر من مفكرين آخرين قبل ابن خلدون مثل أفلاطون وأرسطو والفارابي وأوغسطين، لكن التصور النظري الفلسفي الذي طغى على جهودهم، لم يقترب من الوقائع والطبائع الاجتماعية في حياة البشر، لأنَّ همَّهُم كان همّاً غائياً معيارياً يحدد ما يجب أن يكون عليه المجتمع.

وفي المقابل فإن ابن خلدون قد اعتمد في دراسته للمجتمع على ما يحدث في المجتمع فعلاً، بحكم خبرته العملية في المجتمع، مع أنّه لم يغفل عما يجب أن يكون عليه المجتمع في الصورة الغائية المعيارية، ولكن ليس في إطار نظرة فلسفية مجردة، بل في إطار الهدي الإلهي، كما فهمه من القرآن الكريم. لذلك فإنّه جمع بين التقرير الوصفي والتحديد المعياري، وتحدَّث عن عالم الشهادة دون أن يغفل عالم الغيب، واعتمد العقل وسيلةً لفهم النقل. لكن الميزة الأكثر أهمية في فهم ابن خلدون للعمران البشري هي إدراكه أنه لا سبيل إلى فهم طبيعة العمران دون فهم قوانين الاجتماع الإنساني وطبائع هذا الاجتماع، لأن ما يحدث فعلاً إنما يكون وفق سنن تشبه سنن الكون الأخرى، التي تجري في عالم الأشياء المادية، لذلك لا بد من دراسة الأحداث والوقائع الاجتماعية وفق منهج منظم، لا يتجاوز الوقائع والطبائع. (ملكاوي، 2016م، 286).

ثم إنَّ ابن خلدون وهو يستنبط علم العمران، لا يفعل ذلك اتباعاً لمن سبقه من أهل العلم أو سيراً على خطاهم، سواءً كانوا من علماء المسلمين أو علماء الأمم الأخرى، وإنَّما يفعل

ذلك عن وعي بما أنجزه العلماء قبله في جهودهم لفهم العُمران البشري، وأنَّ ما أنجزوه لم يكن كافياً لصياغة القوانين التي بموجبها نفهم آليات التغيير والتحول والتطور في حياة البشر؛ الأمر الذي تطلب منه بذل الجهد والتفرغ (في قلعة ابن سلامه) أربعة أعوام من عمره قضاها في التدبر والتفكر والقراءة والكتابة، حتى أنجز (كتاب العِبر) وكتب (المقدمة)، التي تضمنت علم العمران، فكان إنجازه فيه إبداعاً "مستحدث الصنعة، غريب النزعة، غزير الفائدة، أعْثَرَ عليه البحثُ، وأدّى إليه الغَوْصُ... وكأنَّه علمٌ مستنبط النشأة، ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة ...ونحن قد ألهمنا الله إلى ذلك إلهاماً، وأعْثَرَنا على عِلْم جَعَلَنا سِنَّ بَكْرِه وجُهَيْنة خَبَره...". (ابن خلدون، 1988م، 49).

وفي هذا السياق يجب علينا أن ننظر إلى الفكر البشري ككائن ينمو ويتطور، فأجزاء منه تقوم بأدوار معينة في أوقات خاصة تمهد لأدوار أخرى معينة؛ فاليونان قاموا بدورهم في الفلسفة والعلوم مثلا، فكان هذا الدور ممهدا للدور الذي قام به العلماء المسلمون، وهو الدور الذي مهد الأذهان والعقول للأدوار التي قام بها الغربيون فيما بعد. وما كان لأحد منهم أن يسبق الآخر، بل إن الفرد أو الجماعة كانت تأخذ عن غيرها ممن تقدمها وتزيد عليه. فوجود ابن الهيثم وجابر بن حيان وأمثالهما كان لازما وممهدا لظهور غاليليو ونيوتن، فلو لم يظهر ابن الهيثم لاضطر نيوتن أن يبدأ من حيث بدأ ابن الهيثم، ولو لم يظهر جابر بن حيان لبدأ غاليليو من حيث بدأ جابر بن حيان (طوقان، 1990م، 7). وهكذا الحال مع رائد علم الاجتماع عبد الرحمن بن خلدون الذي يعتبر أوَّلَ مفكِّرٍ اجتماعي استخدَم المنهج العلمي، وهو أوَّل مَن صاغ قوانين تقدُّم الأمم وانهيارها، وجاء علماء الاجتماع الغربيون ليؤسسوا علومهم في هذا المجال على ما بدأه ابن خلدون ويطوروه حتى وصل إلى ما وصل إليه في عصرنا، وهكذا كان الحال في جميع المجالات العلمية الأخرى.

فالفضل يرجع للمسلمين في الطُّرق الحسابيَّة المستعمَلة في الحياة اليوميَّة، وهم الذين جعَلوا من الجَبْر عِلمًا حقيقيًّا، وتقدَّموا به تقدُّمًا كبيرًا، حتَّى اعتبروا أنَّهم هم الذين أسَّسوه، فالخوارزمي مؤسِّس علم الجبر، وكتابُه الشهير بعنوان "الجَبْر والمُقابَلة"، فيه طُرق حلِّ المَسائل بالوسائل المختلِفة، والخوارزميُّ الذي خلف على هذا العلم اسمَ الجَبْر، فانتقل إلى اللُّغات الأجنبيَّة بِلَفظة العربي(Algebre، أوAlgebra)، مِمَّا يُؤكِّد عروبةَ هذا العلم كما أسَّس علماءُ العرب الهندسةَ التحليليَّة، وحسابَ المُثلَّثات الذي لَم يكن معروفًا عند اليونان. ويشهد بأثر الحضارة الإسلاميَّة على الحضارة الأوروبيَّة كثيرٌ من الأوروبيين فيقول (سارتيون): "إنَّ ما أتت به الحضارةُ الإسلاميَّة في باب العلم، ولا سيَّما العلوم وتطبيقها أعظم بكثيرٍ مِمَّا أتت به في ذلك السَّبيل مملكةُ بيزنطة". كما يذهب (سيديو) إلى أنَّ العرب هم - في واقع الأمر - أساتذةُ أوروبا في جميع فروع المعرفة.

ونشير كذلك لبعض أقوال علماء الغرب عن الحضارة الإسلاميَّة، ومن هذه الأقوال: ذكَرَت (زيغريد هونكه) أنَّ العرب قدَّموا لأوروبا أثمن هديَّة، وهي طريقة البحث العلميِّ الصحيح التي مهَّدَت أمام الغرب أسلوبَ كشف أسرار الطَّبيعة، وسيطرته عليها في الحاضر". كما قال (ليبري): "أنَّه لو لَم يَظهر العرب على مسرح التاريخ، لتأخَّرَت نهضةُ أوروبا عدَّة قرون". كما أشار (كاراديفوا) بأنَّ العرب حَفِظوا، وحسَّنوا فروعًا مختلفة من فروع المعرفة، وأبقوا روحَ البحث حيَّة مُتحفِّزة لاستكشافات، ثم إنَّ مكتشفاتهم في الرياضيَّات هي أساسُ الحضارة الحديثة (شفيق، 2006م، 296).

ويصف لنا (فون كريمر) النشاط العلمي عند المسلمين فيقول: "إن أعظم نشاط فكري قام به العرب يبدو لنا جليا في حقل المعرفة التجريبية ضمن دائرة ملاحظاتهم واختباراتهم. فإنهم كانوا يبدون نشاطا واجتهادا عجيبين حين يلاحظون ويمحصون وحين يجمعون ويرتبون ما تعلموه من التجربة أو أخذوه من الرواية والتقليد. ولذلك فإن أسلوبهم في البحث أكبر ما يكون تأثيرا عندما يكون الأمر في نطاق الرواية والوصف". (روزنتال، 1961م، 15).

وهذه الشهادات التي أوردناها ترد على بعض الأصوات التي تتنكر للجهود العلمية التي أسهم بها العلماء المسلمون في تطور الحضارة الإنسانية، وقد بيَّن روزنتال في هذا السياق بعض المزالق التي قلَّ أن يتحاماها الباحثون الغربيون عندما يتعاملون مع البحث العلمي عند المسلمين، فيقول: "ومن المزالق التي يندر أن يتحاماها الباحثون الغربيون عند تقديرهم البحث العلمي عند المسلمين أنهم يضعون مقاييس صارمة يحكمون بموجبها على ما أنتجه الفكر الإسلامي، مقاييس أشد صرامة من تلك التي نطبقها على ذواتنا نحن الغربيين". ولكنه يؤكد في النهاية أن هناك علاقات وثيقة بين الديانات السماوية الثلاث في مجال البحث العلمي، فيقول: " وبما أن هذه الحضارات الثلاث (الإسلام/ اليهودية/ المسيحية) وثيقة الوشائج فإن الواحدة منها قد تكون مرآة تعكس فضائل الحضارة الأخرى ورذائلها، وذلك وفقا لمبدأ في الفلسفة الإغريقية يقول إن الصديق أو النِّد يكون مرآة لأخيه" (روزنتال، 1961م، 19 - 21).

وربما من سوء حظنا وحظ الإنسانية معنا؛ أن أوربا في عصور نهضتها؛ عندما نقلت العلوم العربية والإسلامية فإنها

قد فصلت بين عنصري المنهجية العلمية الإسلامية، فأخذت الجانب المنهجي المتمثل في الدقة العلمية ومناهج البحث وتركت النسق الفكري الإسلامي الذي يربط جميع المظاهر المدروسة بالأصول الإسلامية الصحيحة.

ويضعنا (بن نبي، 1969م، 8 -9) في مجمل الصورة التي من خلالها اكتشفت أوربا الفكر الإسلامي، فقد اكتشفته على مرحلتين: الأولى ثقافية، والثانية سياسية، حيث كانت المرحلة الأولى إثراء لثقافتها، بينما كانت المرحلة الثانية مرحلة استعمارية، فيقول: "إن أوروبا اكتشفت الفكر الإسلامي في مرحلتين من تاريخها، فكانت في مرحلة القرون الوسطى، قبل وبعد توماس الأكويني، تريد اكتشاف هذا الفكر وترجمته من أجل إثراء ثقافتها بالطريقة التي أتاحت لها فعلا تلك الخطوات الموفقة التي هدتها إلى حركة النهضة منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادي. وفي المرحلة العصرية والاستعمارية فإنها تكتشف الفكر الاسلامي مرة أخرى لا من أجل تعديل ثقافي بل من أجل تعديل سياسي، لوضع خططها السياسية مطابقة لما تقتضيه الأوضاع في البلاد الإسلامية من ناحية، ولتسيير هذه الأوضاع طبقا لما تقتضيه هذه السياسات في البلاد الإسلامية لتسيطر على الشعوب الخاضعة فيها لسلطانها".

وكثيرًا ما يَرِدُ القول بأنَّ رسالة العلم العربيِّ الإسلامي لَم تكن إلاّ وسيلة مواصلات، نقلَتْ علم اليونان إلى الغرب، فانطلق في تقدُّمِه في العصور الحديثة، ولو صحَّ ذلك لكان أصحابُ العلم الأصليُّون هم أولى النَّاس بالتقدُّم، ولَم يحدث ذلك، بل إنَّ الغرب نفسه، لَم تكن تُعْوِزه اللُّغة في قراءة التُّراث اليوناني، ولَم يكن في حاجةٍ إلى مَن يترجم له ذلك إلى لغةٍ أخرى، فالعربيَّة أشَقُّ عليه من لغة اليونان والرُّومان، والواقع أنَّ العلم القديم كان في حاجةٍ إلى حاضِنة ثقافيَّة جديدة، يُفْرِخ من خلالها في ظلِّ أوضاع مختلفة، ولَم يكن العرب المسلمون مجرَّد هاضمين لهذا العلم، بل لقَد استطاعوا أن يَنقلوا عن غيرهم، ثُمَّ أبدعوا شيئًا جديدًا، والعلم العربيُّ الإسلامي هو إحدى حلقات السِّلسة الثقافيَّة التي تعيشها اليوم (قنصوه، 2003م، 120).

ونخلص من خلال الطرح السابق إلى أن تراجع الفكر الإسلامي في هذه المرحلة قد انعكس على تطور البحث العلمي، وكان سببا في تراجعه، كما أن دخول الحضارة الإسلامية عصر الجمود والتقليد قد أدى إلى انتشار الخرافة، وسيطرة العادات والتقاليد غير العلمية على أغلب المؤسسات والمجالات، إضافة إلى بروز ظاهرة الشعوذة والدجل، وتغلغل الأساطير في حياة الناس، بل وحياة كثير من أدعياء العلمية في هذا العصر.

ولأن غروب شمس حضارة ما يؤذن بشروقه لدى حضارة أخرى، فقد أدى غروب شمس الحضارة العربية الإسلامية، التي سطعت يوما ما على حضارة الغرب، كما أشارت إلى ذلك زيغريد هونكه في عنوان كتابها المشهور (شمس العرب تسطع على الغرب)، أدى ذلك إلى بزوغ شمس الحضارة الغربية وشروقها، ولكن ذلك لا يعني عدم غروبها مرة أخرى على هذه الحضارة، وشروقها مرة أخرى في إطار الحضارة الإسلامية، إذا أحسن أتباعها العمل بأسباب الرقي والتقدم، كما عمل على ذلك أسلافهم، أو كما عمل ويعمل الغرب عندما تسلم مشعل الحضارة منهم.

لقد أدى تراجع الفكر الإسلامي الأصيل إلى تراجع البحث العلمي، وذلك عندما تم فهم الإسلام فهما معوجا مشوها، أقعد اتباعه عن العمل، وركنوا نتيجة لذلك الفهم إلى الكسل والجبرية والتبعية، بينما كان أبناء الحضارة الغربية يصلون الليل بالنهار في سبيل البحث عن الجديد علما وأرضا، فتطور البحث العلمي لديهم وقفز قفزات بعيدة المدى، ونتج عن ذلك ظهور الثورات العلمية والتكنولوجية في جميع المجالات.

الخامسة: العصر الحديث:

يعتبر هذا العصر في مجمله امتدادا للعصر الذي سبقه، وإن كان يختلف عنه في ظهور بوادر لعودة الفكر الإسلامي الأصيل إلى الواجهة، فرغم طغيان الفكر الحضاري الغربي وهيمنة ثمرات إنتاجه في البحوث العلمية، وتسارع الطفرات العلمية والثورات التكنولوجية، إلا إن الفكر الإسلامي خلال القرن العشرين وبدايات القرن الحادي والعشرين، بدأ يستعيد الثقة بنفسه ويفرض وجوده في الميدان، من خلال محاولته التخلص من الأفكار الخرافية والأساطير البالية، والعادات والتقاليد التي كانت تكبله وتعيقه عن مواصلة تقدمه، الذي سينعكس بالمقابل على تطور البحث العلمي لديه.

والناظر بعين البصيرة يرى أن هناك هيمنة على عقول بعض الباحثين والمؤلفين من كون أن العلم واحد، وموضوعه واحد لا يتعدد، مما يؤدي إلى نتيجة مفادها أن منهج بحث ودراسة العلوم والأفكار واحد، وقد بُلِيَ الفكر الحديث بهذا الداء في فترات متقطعة من تاريخ الإنسانية، ففسرت كل مسائل العلم والفكر في حقبة غلبة (التحليل المادي للتاريخ) بهذا المنهج، واستولى التفسير التجريبي على عالمي الفكر الشعور حين هيمن هذا (المسلك التحليلي) على عقول الناس في فترة من فترات التاريخ، وهكذا ما كانت الغلبة لمنهج في فترة من الفترات إلا وكان سيد الموقف في تحليل كل شيء حتى ما لا ينسجم مع طبيعة ذلك المنهج. (جيدل، 2004م، 68). وفي حديث جيدل إشارة إلى هيمنة المناهج العلمية الغربية على ما سواها من مناهج، بحيث أصبح الخروج عنها خروجا عن العلمية والبحث العلمي، وفي ذلك ما فيه من التحيز، وكبح جماح أي محاولة

للخروج عن مسار التوجه الغربي ليس في مجال البحث العلمي بل يتعدى ذلك إلى أغلب - إن لم يكن كل - المجالات.

وعندما انتقلت العلوم الإسلامية إلى أوروبا فطن علماؤها إلى سر تقدم المسلمين وسعوا إلى اتباع منهجهم بعد أن وجدوا أن هذا المنهج هو السمة الواضحة في علوم الحضارة الإسلامية، وهذا ما قاله روجر بيكون، نقلا عن (عبد الرحيم، 1979م، 76): "إنه باتباع المنهج التجريبي، الذي كان له الفضل في تقدم العرب، فإنه يصبح بالإمكان اختراع آلات جديدة تيسر التفوق عليهم... ففي الإمكان إيجاد آلات تمخر عباب البحر دون مجداف يحركها، وصنع عربات تتحرك بدون دواب الجر، وإيجاد آلات طائرة يستطيع المرء أن يجلس فيها، ويدير شيئا تخفق به أجنحة صناعية في الهواء مثل أجنحة الطير". لكن النهضة الأوروبية لم تأخذ من العلوم الإسلامية سوى الجانب المادي من منهجها التجريبي وتقنياته، وتركت جانب الإيمان الذي يوجهها نحو الله تعالى ويسخرها لخدمة البشر.

وقد كان انتقال علوم المسلمين إلى أوروبا تمهيدا لقيام العلم الحديث على أساس تجريبي، إلا أن النهضة الأوروبية تركت جانب الإيمان الذي يوجهها نحو الله تعالى، فتخلى العلم عن المعنى والسمو الروحي وأصبح دنيويا فقط بعلاقاته مع الأشياء، كما أصبح الباحث ينطلق في تفكيره من مبدأ (الحتمية) الذي يفترض أن صدق أحداث الكون مستقل عن الزمان والمكان والخبرة الذاتية. والمتأمل في الفلسفة التي حكمت بدايات تعامل الغرب مع العلوم الإسلامية سواء في تعاملهم مع مقدمة ابن خلدون أو علم أصول الفقه ومناهجه أو غير ذلك من المناهج الإسلامية، يلحظ أنه تم نقل المنهجية دون نموذجها المعرفي، ومن ثم أدمجت هذه المنهجية في نموذج معرفي مغاير لها فأصبحت غير ذاتها وتحولت إلى نسيج جديد.

وليس هناك من ينكر أن في الفكر الغربي حقائق علمية هي نتاج سعي الإنسان نحو المعرفة والتحضر، ولولا ذلك لما هيمن هذا الفكر وغلب وحقق الإنجازات الباهرة التي يزخر بها عالم اليوم، إلا أن طبيعة هذا الفكر تبقى مادية الفلسفة والمنهج، غربية الأصول، مسيحية القيم، وكثيرا ما تكمن هذه الفلسفة المادية في فرضيات المعارف المختلفة ومقدماتها دون أن تعلن عن نفسها أو تثبت صحتها، ويغلف هذا الفكر إنجازات وإضافات الأمم الأخرى رابطا نفسه بأصوله اليونانية والرومانية، ويعلي شأن القيم المسيحية كما كيفتها المجتمعات الأوروبية على ما عداها من قيم ومعتقدات. (مجموعة مؤلفين، 1995م، 13 تصدير).

ومع ذلك، يمكن للحضارات أن تستفيد من بعضها، ويكمل بعضها عمل الآخر، ويمكن التوسع في بيان صور التكامل بين الحضارات ليتضمن تكامل جهود العلماء في الأجيال المختلفة، بحيث يبني كل جيل على خبرة الجيل الذي سبقه، حتّى إنّه ليصعب تصور تحقيق إنجازات جيل لاحق لو لم يعتمد على إنجازات الجيل السابق. وكذلك الأمر في تكامل جهود الشعوب والأمم؛ إذ ينبئُنا التاريخ أنَّ حضارة أيَّةِ أمَّةٍ كانت في الغالب نتيجة التفاعل والاستيعاب والاقتراض الثقافي والحضاري من الأمم الأخرى، المعاصرة لها أو السابقة عليها. (ملكاوي، 2016م، 56). ومع ذلك نجد أن الحضارة الغربية في حالة ممانعة عن مد جسور التكامل مع غيرها من الحضارات، بل وتعمل على إعاقة أي نهضة في أي اتجاه، وخاصة في مجال تطوير الفكر الإسلامي الذي سينعكس بدوره على تطور البحث العلمي في الأقطار العربية والإسلامية، وما الحروب التي يشنها الغرب على العالم الإسلامي، والتحريش بين دوله إلا إحدى المؤشرات على ممانعته واحتكاره، ومحاولته الإمساك بزمام قيادة العالم في جميع المجالات لأطول فترة ممكنة.

ومنذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي تقريبا، والعالم الإسلامي كله (مقتلع النوافذ والأبواب)، وفق تعبير (العلواني، 1989م، 19 - 20)، في وجه الحضارة الغربية، وفي وجه كل ما هو غربي، سواء تعلق ذلك بالعلوم أو الثقافات أو المناهج أو الفنون والآداب، وحتى الأذواق والعادات الغربية قد تسربت بدرجات متفاوتة. وقد عمل الغربيون في سبيل نشر ثقافتهم على إنشاء مدارسهم التعلمية داخل أو بجوار كنائسهم التنصيرية، وقد شهدت الحواضر الإسلامية في بيروت والقاهرة وبغداد والموصل والإسكندرية وإسطنبول وغيرها من حواضر المسلمين صورا متكررة لهذا الوضع.

ويورد (المطيري، 1992م، 48) اتفاق علماء الاجتماع المعاصرون، على أن علم الاجتماع في العالم الإسلامي، يسير على خطى علم الاجتماع في الغرب، حذو القذة بالقذة. فالنظريات والمناهج الغربية، بل في أحيان كثيرة اللغة الغربية، هي ما يجيده علماء الاجتماع في العالم الإسلامي، ويعتبر هذا الوضع أمراً طبيعياً في مناخ تسوده التبعية المطلقة للغرب، التي انتظمت كافة المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية.

وفي جو معتم، بلغت فيه التبعية مبلغاً، جعلت الدول الإسلامية تستورد كل شيء ضروري لوجودها - بما في ذلك أفكارها عن نفسها - في جو كهذا لا غرابة أن ينشأ المفكر - أياً كان تخصصه - تابعاً، لا تتجاوز قدرته النقل والترجمة والشرح على النص (زهران، 1981م، 9). لهذا لا بد أن يعي الباحثون في المجال العربي والإسلامي، لاسيّما الجامعيون منهم، أنّ ما يتمّ تناوله من قبل العلماء في البلدان الغربية المتقدمة ليس

بالضرورة جديراً بالتناول أو المحاكاة، فمعيار ما ينبغي الاشتغال به من بحوث هو مواجهة المشكلات المحلية والحقيقية، وتوفير الإنتاج المعرفي الذي يخدم التنمية وحركة العلم داخل الأوطان.

ومع التقدم العلمي والتقني لم تتغير وسائل البحث العلمي في ذاتها ولكن تطورت الأجهزة التي تعزز أداءها، فعندما اقتحم العلم عالم الذرة والنواة والخلية الحية، وعندما غزا أعماق الفضاء الخارجي لاكتشاف المزيد من الكواكب والنجوم والمجرات، وانتقل من عالم المقاييس البشرية العادية إلى عالم المتناهيات في الصِغر والكِبر، ولم تعد العين المجردة وبقية الحواس قادرة على مواصلة القراءة والبحث في المخلوقات الدقيقة أو البعيدة، وكان اختراع المقاريب، والمجاهر البصرية والإلكترونية تعزيزا لحاسة البصر، مثلما كانت سماعة الطبيب تعزيزا لحاسة السمع، وكانت الترمومترات الحرارية تعميقا لحاسة اللمس، وكان الحاسب الآلي مساعدا للعقل في إجراء العمليات الحسابية والتخطيطية المعقدة، ويستمر تطور الأجهزة العلمية مواكبا لتطور العلم، ومرتبطا في نفس الوقت بأصولها الثابتة كما خلقها الله في الإنسان.

وتكمن عظمة المنهج الإسلامي في أنه تجريبي عقلي في آن واحد ويعتبر الإنسان بكامل حواسه وعقله وإرادته وبصيرته وحدسه، هو الوسيلة الأولى والأخيرة لتحصيل المعرفة العلمية، والأجهزة التي يستخدمها ويطورها لتعزيز قدراته وإمكاناته هي في نفس الوقت من صنع ملكاته، وبهذا يبطل أي اقتصار مصطنع على إحدى وسائل المعرفة، مثلما يفعل العقليون أو الحسيون أو التجريبيون وأصحاب النزعة النقدية والنزعة الاجتماعية وغيرهم (باشا، 1996م، 82).

إن أي مراجعة متأنية لتاريخ العلم والمنهج العلمي الحديث لتكشف لنا بوضوح، عن طبيعة التأثير الشديد للعوامل البيئية والثقافية والظروف التاريخية الخاصة في تشكيل التوجه العام السائد للعلم الأوروبي الحديث، ذلك التوجه المادي الوضعي القائم على المباعدة بين العلم وبين كل ما يمت بصلة للدين أو الوحي أو حتى القيم، والذي يصر على أن أي محاولة للمزج بينهما ستكون ضارة بكليهما على حد التعبير الذي جاء في قرار لمجلس الاكاديمية الأمريكية للعلوم عام 1981 والذي يؤكد على " أن الدين والعلم مجالان منفصلان عن بعضهما البعض تمام الانفصال، وأن أي محاولة للجمع بينهما في إطار واحد يترتب عليها سوء فهم لكل من النظريات العلمية والمعتقدات الدينية " (رجب، 1993م، 26)، وهو تفكير يعكس النزعة المادية التي صاحبت دراسات العلوم الطبيعية.

والعقلانية التي تؤسس للمادية هي عقلانية لا تنسجم والرؤية الكلية الإسلامية، ومن غير الممكن إدراجها فيها، وإن العلوم الطبيعية التي تنفي أصل الخلق الإلهي للكون هي علوم مزيفة وناقصة في ميزان الرؤية الإسلامية، ولا يمكن إدخالها وزجها في قلب الثقافة العربية الإسلامية (شريح، 2013م، 30).

والادعاء الخاطئ (بأنه لا توجد حدود أخلاقية تقف في سبيل البحث العلمي) قد أفسد رسالة البحث العلمي النبيلة وأدى إلى قدر هائل من شقاء الإنسان ومعاناته، ومن جهة أخرى فإن العلوم التجريبية لم تستطع أن تقف في وجه صور الظلم الاجتماعي المختلفة أو القوى الدكتاتورية المتسلطة في مختلف جنبات الأرض وذلك بدعوى أن الانتصار للحق وكبح جماح القوى السياسية هو في الحقيقة التزام أخلاقي لا يمكن أن يقنن بواسطة المنهج العلمي التجريبي الذي جرد نفسه من أية قيم أخلاقية، ولا يمكن للإنسان أن يجابه التحدي الأخلاقي في عصرنا الحاضر إذا استمر في البحث عن مبررات تجريبية للقيم.

وإذا كان سلفنا الصالح قد استخدم مناهج بحثية معينة: المنهج التاريخي، المنهج التحليلي الأصولي، المنهج الفلسفي، المنهج المقارن في كتاباتهم التربوية، وكان لهم فضل إرساء دعائم تلك المناهج واستخدامها في دراساتهم العلمية، فإن هناك أساليب وتقنيات جديدة في مجال البحث التربوي المعاصر مثل: الاستبيانات، والتحليل الإحصائي، والاختبارات والمقاييس والتجريب التربوي... إلخ، وهذه الأساليب والتقنيات الجديدة لا بد أن تُستخدم بكفاءة لدراسة كثير من الظواهر التربوية المعاصرة من منظور إسلامي، وهذا هو التحدي الوجودي الذي على الفكر الإسلامي أن ينجح فيه، كي يطور البحث العلمي في جميع الميادين.

وقد شهد هذا العصر محاولات منتجة لتقديم قراءة متناسقة عن الميتافيزيقا الكونية والطبيعية والإنسانية من قبل عدد من الباحثين المسلمين من خلال نقد المناهج الفلسفية المعاصرة القائمة على الإلحاد؛ وقدمت منهج بحث إسلامي أصيل لا يبارح آفاق المعاصرة، أساس بنيانه الاستقراء الواقعي الذي ينطلق إلى فهم الغيب من طريق قراءة الواقع، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: 53].

ومما يؤسف له، أن البحث العلمي في البلاد الإسلامية لا يحظى بالاهتمام المطلوب، بل إنه يكاد يكون مهملا في الحقيقة إلا في أبواق الدعاية التي لا تعبر عن الحقيقة في شيء. إنه انعكاس لوضع عام من الضعف في الحس السببي الذي يقابله في عالم الغرب حسٌ مرهف بالسببية يدل عليه ما يعطى من أولوية مطلقة للبحث العلمي، وما ينفق من أجله من أموال طائلة تبلغ في

الولايات المتحدة الأمريكية 3% من الدخل القومي، ولا يقل عن ذلك كثيرا في سائر بلاد الغرب (النجار، 2006م، 57).

وفي مستوى الاهتمام بالبحث العلمي وتطويره من طرف الجامعيين والباحثين، ووضع أحوالنا كمجموعة علمية، إذا ما أردنا قياس المسافة بيننا وبين مجتمع علمي، أي مجتمع يشتغل بالعلم ومن أجله سؤالا وبحثا وإجابة وكسبا وعيشا، يمكن تلخيص هذا الاهتمام في أربعة أحوال أو مستويات (الخمسي، 2009م، 238 - 239):

المستوى الأول: وهو مستوى نفسي يتمثل في مجموعة من المنتسبين للجامعات والمعاهد والمراكز، تغلب عليها حالة نفسية عاطفية تاريخية، تنطلق من مسلمات صنعتها لنفسها دون أن تبرهن على صحتها، تحسب من خلالها أننا نملك هذا الذي نبحث عنه، وهي بذلك تتجنب كل تعب فكري أو ذهني أو علمي، وتتحول هذه المجموعة في سلوكها وتفكيرها أقرب إلى العامة في نهاية عمرها، إذ يضيق صدرها من كل نقد، وتعتبر أن سقف العلم هو ترديد مجموعة من النصوص تتقدس في نفسها مع عامل الزمن، وتجمد عليها إدراكا وفهما وتطبيقا غير واعية بما تتعرض له معارفهم وزادهم من التآكل والتجاوز بفعل عوامل الزمن والتعرية والركود.

المستوى الثاني: وتشكله مجموعة التيئيسيين، وهي مجموعة تملك بشكل أو درجة من الدرجات فهما في بعض القضايا العلمية، لكنها تعاني من ضعف الرغبة في البحث العلمي والتحقق والإنجاز من جهة، ومن جهة أخرى تعاني من أورام نفسية وتضخم في الذات دون وعي بذلك، أو عن وعي جزئي بالموضوع، وهؤلاء يملكون قدرة تصل حد الاحتراف للنقد دون مبررات موضوعية مع قلة العمل، كما يتمتعون بقدرة عالية وفائقة في إنتاج المناظر السوداء، وسرعة إصدار الأحكام، ويشكلون عائقا حقيقيا أمام بناء هذا المجتمع العلمي، وهم أقرب إلى حركة احتجاجية في أخر أعمارهم، إلا أنه سرعان ما تنمحي آثار احتجاجهم إذ لا تتجاوز أن تكون ذات طبيعة مزاجية، ولو كانت حركة نقدية علمية لتمكن المحيط من الاستفادة منها، ولو في الحد الأدنى في مراجعة المناهج وطرق الاشتغال فيما يتعلق بالبحث العلمي.

المستوى الثالث: تمثله المجموعة العلمية المستنزفة لإنها تجمع بين عناصر القوة والضعف، فهي تتمتع بقدرة عالية ومتميزة في مجال البحث والنظر، مع وجود درجة محترمة من التحليل والتعليل والتفصيل والتدقيق، إلا أنها تحمل عائقا منهجيا يتمثل في بعدها عن الواقع أو عجزها عن إدراك صياغته واختراقه، بحيث لم تستطع تطوير الكثير من أفكارها وأعمالها النظرية إلى مشاريع عملية قابلة للتطبيق والتنزيل، وتكتفي بسبب هذا العجز الذي تحول مع الزمن إلى عائق بنيوي بالمستوى النظري وقد يمتد بها العمر دون ملامسة هذا الواقع، وفهم طرق بناء هذا المجتمع العلمي، فيذهب كثير من جهدها دون استكمال المهمة أو إبقاء أثر يذكر في الواقع.

أما الفريق الرابع المراهن عليه، ويمكن تسميته تجاوزا النواة الصلبة أو الكتلة الحرجة التي تمثل شرطا أساسيا ضروريا لإيجاد هذا المجتمع، أي المجتمع العلمي. فهي المجموعة المنشغلة بالبحث العلمي، الساعية إلى تطويره مع وعيها التام بأشد العوائق والإكراهات، وتمتعها بالقدرة على الربط بين البحث والنظر، وبناء ساحة الفعل والمحاولة للتطبيق والممارسة، وتعتبر هذه المجموعة هي الكتلة الحرجة التي وهي شرط أساسي لتفجير طاقة الانطلاق.

وكخلاصة فإن مدخلات الجامعة بمواردها البشرية المشتغلة في الحقل العلمي، لا يبقى منها ولا يراهن فيها إلا على المجموعة الرابعة، التي تجمع في شخصيتها العلمية الوعي بالواقع والقدرة على الربط بين حاجات هذا الواقع وسلطان المعرفة والعلم، ساعية إلى تطوير هذه النواة لتصبح مجتمعا علميا يتمتع بخصائصه ومميزاته.

إن التراث الإسلامي يظل في نهاية المطاف مجموع الإنتاج الفكري والأدبي والمادي... الذي أنتجه المسلمون في تفاعلهم مع أصول الإسلام: الكتاب والسنة، وهو معرض للصواب والخطأ بقدر التزامه للمضامين الفكرية والأدبية والعقدية التي تقررها هذه الأصول، سواء في شكل مبادئ محددة أو توجيهات وكليات عامة. وكل دراسة نقدية وتقويمية لهذا التراث ينبغي أن تنطلق حتماً من القيم الجمالية والأدبية والخلقية التي يقررها الإسلام وتستحضر مجموع المسلمات الإيمانية والدينية التي يحددها، ولا يمكن أن نفهم هذا التراث فهمًا سليمًا واعيًا ونميز محاسنه عن مساوئه، وخطأه من صوابه وقوته من ضعفه، إلا إذا احتكمنا إلى الأصول التي انطلق منها، وهي الكتاب والسنة.

ولأن سنة التدافع بين الحضارات هي سنة الله الجارية في هذا الكون، حتى على مستوى الأفكار، فإن الفكر الإسلامي قد شرع في استعادة توازنه، من خلال تركيزه على نقاط القوة في تراثه وتعزيزها، والتخلي عن نقاط الضعف في تراثه واطِّراحها، وكذا الاستفادة الواعية مما لدى الآخر في الحضارة الغربية في غير ما تبعية ولا هزيمة نفسية. وقد استطاع الفكر الإسلامي تحقيق اختراقات معتبرة في جدار التخلف والجمود الذي سيطر على الحضارة الإسلامية لعدة قرون مضت، وبدأ الكثير من رواد الفكر الإسلامي أفرادا ومراكز علمية ومنتديات

ثقافية ومعاهد فكرية من ترتيب أوراقهم، وتقديم رؤى جديدة للفكر الإسلامي تحمل سمة المعاصرة، ولا تتنصل عن سمة الأصالة. وقد كان لبعض الجامعات والمعاهد والمراكز البحثية دور بارز في دفع عجلة التطور في الفكر الإسلامي خطوة إلى الأمام، فكان ذلك في صالح البحث العلمي ويصب في رصيده، فبدأ يستعيد بعضا من تميزه، وإن كان ذلك في بداياته الأولى، مقارنة بما قطعته الحضارة الغربية من أشواط في هذا المضمار، وأن تأتي متأخرا خير من ألا تأتي.

باختصار هناك دائماً مستويات من اللقاء بين البحث العلمي والفكر الإسلامي، بغض النظر عن حداثة هذا أو قدم ذاك. نريد قدراً من النضج العقلي والرشد النفسي، كما يقول أستاذ علم النفس سيد عثمان، للتعامل مع الذات و(الآخر). ويحول هذا النضج وذاك الرشد دون أن ننسب لتراثنا ما ليس له أو نبخس (الآخر) إنجازه. وبالنضج والرشد تتكون الثقة بالذات التي تجعلنا نقبل ونرفض ونستوعب ونعدّل عن بيّنة وليس عن هوس. وهذا ما يمكن تسميته (بالاشتباك الفكري مع الآخر). (عطاري، 2008م، 135، 136).

وما نريد التحذير منه هو ميل بعض الباحثين المسلمين لاستسهال عملية تأصيل البحث العلمي في الفكر الإسلامي، فيعمد البعض إلى البحث عن آية قرآنية أو حديث نبوي يدعمون بهما أفكاراً علمية أو منهجية حديثة؛ بهدف إثبات التوافق بين الإسلام والنظريات الحديثة، أو إثبات السبق الإسلامي لتلك النظريات. وقد يكون بعض هؤلاء مدفوعين بحسن النية أحياناً وبدوافع مصلحية مادية أو معنوية أحياناً أخرى، دون أن يتوافر لديهم في الحالتين التمكن من البحث العلمي من جهة والفكر الإسلامي من جهة أخرى، فيقدمون محاولات صبيانية تثير الشفقة وأحياناً التبرم.

النتائج:

- ✓ تعتبر مرحلة النبوة والخلافة الراشدة من أقصر المراحل بالنسبة لمراحل تطور الفكر الإسلامي مقارنة بالمراحل التي تليها، ولكنها تعتبر من أخصب المراحل، فنصف قرن تقريبا؛ هي فترة النبوة والخلافة الراشدة، صنعت فارقا كبيرا، وكانت فترة تأسيسية مباركة للفكر الإسلامي الذي انطلق من خلالها ليؤسس مرحلة جديدة في تطور العقل الإسلامي، الذي جعل من البحث العلمي أداة من الأدوات التي استعان بها ليواصل عطاءه خلال المراحل التالية وحتى يومنا هذا.
- ✓ تأسست في مرحلة الدولة الأموية بدايات العلوم الإسلامية التي تميل إلى جانب التصنيف والتخصص، وكانت الفترة التي عاشتها هذه الدولة التي قاربت القرن، مرحلة من المراحل التي نضج فيها الفكر الإسلامي، وتأسست فيها بدايات المدارس الإسلامية، التي استمر عطاؤها في العصور التالية، وكان البحث العلمي يزداد وضوحا وتخصصا تبعا لتطور الفكر الإسلامي في هذه المرحلة.
- ✓ يمكن اعتبار مرحلة الدولة العباسية هي العصر الذهبي بالنسبة لانفتاح الفكر الإسلامي على علوم الأمم الأخرى، وتبعا لذلك فقد حدثت للبحث العلمي نقلة نوعية كبيرة وتطور ملموس، كما دخل التخصص الدقيق للعلماء المسلمين حيز التنفيذ، مع ظهور أسس وقواعد العلوم وميلها نحو التخصص، وقد كانت هذه المرحلة من الخصوبة والثراء والتلاقح مع علوم الأمم الأخرى، ما يجعل المتابع يدهش من طبيعة الشغف الذي أصبح سمة هذا العصر، وخاصة في فترة قوة الدولة العباسية، والتي دامت زهاء ثمانية قرون في شقيها القوي والضعيف.
- ✓ تعتبر مرحلة الدولة العثمانية، والذي امتد لستة قرون تقريبا، هو العصر الذي بدأ فيه التراجع في جانب الفكر الإسلامي والذي انعكس بدوره على البحث العلمي، وكان هذا العصر امتدادا للعصر العباسي الثاني (عصر الضعف)، الذي بدأ فيه مؤشر الانحدار في جوانب كثيرة في الدولة العباسية ومن ضمن ذلك الدخول في عصر الجمود والتقليد، الذي لم ينته بسقوط الدولة العباسية ولا بسقوط الدولة العثمانية بل استمر حتى العصر الحديث، وقد ترافق ذلك مع فترة النهضة العلمية للغرب.
- ✓ تعتبر مرحلة العصر الحديث في مجملها امتدادا للعصر الذي سبقها، وإن كان يختلف عنه في ظهور بوادر لعودة الفكر الإسلامي الأصيل إلى الواجهة، فرغم طغيان الفكر الحضاري الغربي وهيمنة ثمرات إنتاجه في البحوث العلمية، وتسارع الطفرات العلمية والثورات التكنولوجية، إلا إن الفكر الإسلامي خلال القرن العشرين وبدايات القرن الحادي والعشرين، بدأ يستعيد الثقة بنفسه ويفرض وجوده في الميدان، من خلال محاولته التخلص من الأفكار الخرافية والأساطير البالية، والعادات والتقاليد التي كانت تكبله وتعيقه عن مواصلة تقدمه، الذي سينعكس بالمقابل على تطور البحث العلمي لديه.
- ✓ مناهج البحث العلمي، هي نتاج تراكم الحضارات عبر التاريخ، حتى، إن بدت بصمات بعضها أعمق من الأخرى، لكن البشرية لم تزل تتعلم من بعضها، فكل جيل يأخذ ممن سبق. ولولا هذا التراكم المعرفي، لما ملك العقل البشريُّ إلا الارتكاس إلى طفولته البدائية، ويرتدَّ معه الإنسان إلى ما كان عليه من المعاناة القاسية في بدايات تاريخه.
- ✓ الفكر الإسلامي لا يرى العصمة ـ في ضوء أصول الإسلام ـ إلا في الوحي الإلهي، ويدرك تماما أن العصور السابقة ليست معصومة، بل كانت أوعية للتجارب والممارسات الإسلامية التي تحددت بظروف زمانية معروفة، نراجعها ونستفيد منها، ونقوِّم

تفاصيل ما جرى فيها في ضوء أصول الإسلام، وقواعد المصلحة ومنطق العقل والتجارب الإنسانية المعاصرة، فنقبل ما نقبل وننبذ ما ننبذ، من أجل ألا تعيقنا مظاهرها السلبية، وحلولها المرحلية، وأفكارها الخاطئة، عن الحركة والتقدم لبناء حياة إسلامية معاصرة وسط عالم حضاري جديد له همومه ومشاكله وتصوراته.

✓ إن من أبرز عوامل تخلف المسلمين في العصور المتأخرة من تاريخهم، هو تخليهم عن مناهج البحث العلمي التي كانوا رواداً في ميادينها؛ لكنهم لم يقطفوا ثمراتها كاملة حيث أسلموها للغرب ليقطفها.

✓ ربما كان مصطلح الاجتهاد في التراث الإسلامي، تعبيراً عما يسمى الآن بالبحث العلمي، وكما أنّ للبحث العلمي الآن مناهج تنمو وتتطور، فكذلك كان الأمر للاجتهاد في التراث الإسلامي قديماً، وفي الفكر الإسلامي في سائر العصور.

التوصيات:

يوصي الباحث في نهاية بحثه هذا بالآتي:

1- التوسع في دراسة طبيعة العلاقة بين البحث العلمي والفكر الإسلامي.

2- القيام بدراسة مقارنة موسعة لعلاقة البحث العلمي بالفكر الإسلامي والفكر الغربي.

3- تخصيص دراسات مستقلة لكل مرحلة من مراحل تطور البحث العلمي في الفكر الإسلامي التي تضمنها هذا البحث.

4- دراسة الأسس التي قام عليها البحث العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

5- القيام بدراسة تأصيلية ناقدة عن مآلات ونتائج البحث العلمي في كل من الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية.

المصادر والمراجع:

ـــ الأصفهاني، الراغب. (1999م). محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والأدباء. ط1. حققه وضبط نصوصه: عمر الطباع. شركة دار الأرقم بن ابي الأرقم. بيروت - لبنان.

ـ ابن الهيثم، الحسن. (1983م). كتاب المناظر. حققها: عبد الحميد صبرة. السلسلة التراثية. الكويت.

- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. (1988م). ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر. ط2. تحقيق: خليل شحادة. دار الفكر. بيروت - لبنان.

- ابن فارس، أبي الحسين أحمد. (1979م). معجم مقاييس اللغة. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. دمشق - سوريا.

ـ أبو العينين، علي خليل. (1986م). أصول الفكر التربوي الحديث بين الاتجاه الإسلامي والاتجاه التغريبي. ط1. دار الفكر العربي. القاهرة. مصر.

- أبو جججوح، يحيى محمد. (2011م). أخلاقيات البحث العلمي المستنبطة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. أعمال مؤتمر البحث العلمي: مفاهيمه. أخلاقه. توظيفه. الجامعة الإسلامية - غزة - فلسطين. 215 - 251.

- أمزيان، محمد. (1998م). أصول المنهج المعرفي من القرآن والسنة. مجلة المسلم المعاصر. العدد 87. بيروت - لبنان. 77 - 154.

ـ أمين، أحمد. (1969م). فجر الإسلام. ط 10. دار الكتاب العربي. بيروت - لبنان.

- أوغلو، أكمل الدين إحسان. (1991م). البحث العلمي في العالم الإسلامي. مجلة المسلم المعاصر. العدد 61. بيروت - لبنان. 121 - 132.

ـ باشا، أحمد فؤاد. (2006م). حول رؤية الإمام محمد عبده لعلاقة الدين بالعلم. مجلة المسلم المعاصر. العدد 119/ 120. بيروت - لبنان. 143 - 183.

ـ ///////////////. (1987م). فلسفة العلوم الطبيعية في التراث الإسلامي. دراسة تحليلية مقارنة في المنهج العلمي. مجلة المسلم المعاصر. ع 49. بيروت - لبمان. 9 - 25.

ـ /////////////. (2017م). بحوث ومراجعات في ترشيد الفكر العلمي. ط1. نيويورك للنشر والتوزيع. القاهرة. مصر.

- ///////////////. (1996م). نسق إسلامي لمناهج البحث العلمي. ط1. في د. نصر محمد عارف (تحرير). قضايا المنهجية في العلوم الإسلامية والاجتماعية. المعهد العالمي للفكر الإسلامي. هيرندن. فرجينيا. الولايات المتحدة الأمريكية.

ـ بدوي، عبد الفتاح محمد. (2001م). فلسفة العلوم. ط2. دار قباء للنشر والتوزيع. القاهرة.

- بكار، عبد الكريم. (2000م). فصول في التفكير الموضوعي. منطلقات ومواقف. ط3 دار القلم. دمشق - سوريا.

ـ بن الصديق، عبد المنعم. (2013م). مقاربة مناهج البحث العلمي عند المسلمين (الدراسات الإسلامية نموذجا) مجلة الإبصار. تصدرها من طنجة جمعية إبصار للتربية والثقافة والبحث العلمي. العدد الأول. 44 - 51.

- بن نبي، مالك. (1969م). إنتاجُ المستشرقينْ وأثَره في الفِكر الإسلاميّ الحَدِيث. ط1. دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت - لبنان.

ـ الجابري، إدريس نغش. (2009م). التكاملية في العقلانية العلمية الإسلامية. ضمن مجموعة مؤلفين. التكامل المعرفي بين

العلوم الإسلامية الأسس النظرية والشروط التطبيقية. ندوة دولية برحاب مؤسسة دار الحديث الحسنية بتاريخ 11 - 12 فبراير 2009م. جامعة القرويين. المغرب.

- الجاحظ، عمرو بن بحر بن محبوب. (2003م). الحيوان. ط2. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان.

- ////////////////. (1964م). رسائل الجاحظ. رسالة المعاش والمعاد. مكتبة الخانجي. القاهرة ـ مصر.

- الجندي، محمد علي محمد. (1996م). التقييم الإبستمولوجي المنهجي لمساهمات العلماء المسلمين في العلوم الرياضية والطبيعية. ط1. في د. نصر محمد عارف (تحرير). قضايا المنهجية في العلوم الإسلامية والاجتماعية. المعهد العالمي للفكر الإسلامي. هيرندن. فرجينيا. الولايات المتحدة الأمريكية.

- ////////////////. (1990م). مشكلة الاستقراء والعلمية بين المسلمين والغربيين (دراسة مقارنة). مجلة المسلم المعاصر. العدد 57. بيروت ـ لبنان. 253 - 271.

- جيدل، عمار عبد السلام. (2004م). ملوثات البيئة الفكرية: رؤية إسلامية. مجلة المسلم المعاصر. العدد 112. بيروت - لبنان. 53 - 92.

- حربي، خالد أحمد. (2005م). علوم الحضارة الإسلامية ودورها في الحضارة الإنسانية. ط1. كتاب الأمة رقم (104). وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. الدوحة ـ قطر.

- حلمي، مصطفى. (2005م). مناهج البحث في العلوم الإنسانية بين علماء الإسلام وفلاسفة الغرب. ط1. دار الكتب العلمية. بيروت ـ لبنان.

- خروبات، محمد. (1998م). الفكر الإسلامي المعاصر. دراسة في التدافع الحضاري. ط2. مراكش. المغرب.

- خليفة، حاجي. (بدون). كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. دار إحياء التراث العربي.

- خليل، عماد الدين. (1991م). حول إعادة تشكيل العقل المسلم. فرجينيا. الولايات المتحدة الأمريكية. المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

- الخمسي، محمد. (2009م). من مجموعة علمية إلى مجتمع علمي السياق التاريخي والعوامل والأسس. ضمن مجموعة مؤلفين. التكامل المعرفي بين العلوم الإسلامية الأسس النظرية والشروط التطبيقية. ندوة دولية برحاب مؤسسة دار الحديث الحسنية بتاريخ 11 - 12 فبراير 2009م. جامعة القرويين. المغرب.

- الخوارزمي، محمد بن موسى. (2009م). كتاب الجبر والمقابلة. ط1. تحقيق: علي مصطفى مشرفة. شركة نوابغ الفكر. القاهرة ـ مصر.

- الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين. (1999م). مفاتيح الغيب (التفسير الكبير). ط3. دار إحياء التراث العربي. بيروت ـ لبنان.

- رجب، إبراهيم عبد الرحمن. (1993م). المنهج العلمي للبحث من وجهة إسلامية في نطاق العلوم الاجتماعية ومهمة المساعدة الإنسانية. مجلة المسلم المعاصر. العدد 67 /68. بيروت - لبنان. 12 - 74.

- روزنتال، فرانتز. (1961م). مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي. ترجمة: د. أنيس فريحة. مراجعة: د. وليد عرفات. دار الثقافة. بيروت ـ لبنان.

- زكريا، فؤاد. (1978م). التفكير العلمي. سلسلة عالم المعرفة. الكويت. العدد 3. مارس 1978م.

- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد. (1986م). الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل. ط3. وتخريج أحاديث الكشاف للإمام الزيلعي. دار الكتاب العربي – بيروت ـ لبنان.

- زهران، سعيد. العالم الثالث يفكر لنفسه. ط1. دار ابن رشد. بيروت ـ لبنان.

- الزيات وآخرون، أحمد حسن. (2004م). المعجم الوسيط. ط4. دار الشروق الدولية. القاهرة ـ مصر.

- زيدان، عبد الكريم. (1969م). المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية. دار عمر بن الخطاب. الإسكندرية مصر.

- سعيدان، أحمد سليم. (1988م). مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الإسلام. سلسلة عالم المعرفة. العدد 131. الكويت. نوفمبر 1988م.

- سعيد، همام عبد الرحيم. (1987م). الفكر المنهجي عند المحدثين. كتاب الأمة رقم (16). ط1، الدوحة – قطر.

- الشرجبي، عبد الغني قاسم. (1988م). الإمام الشوكاني حياته وفكره. مؤسسة الرسالة. بيروت. لبنان.

- شريح، محمد عادل. (2013م). فكر التأصيل المنهج والفلسفة. ط1. دار الفكر. دمشق ـ سوريا.

- شفيق، محمد. (2000م). البحث العلمي مع تطبيقات في مجال الدراسات الاجتماعية. المكتب الجامعي الحديث. الإسكندرية - مصر.

- الشوكاني، محمد بن علي. (1977م). قطر الولي على حديث الولي، أو ولاية الله والطريق إليها، تحقيق وتعليق: إبراهيم إبراهيم هلال. دار الكتب الحديثة. القاهرة. مصر.

- ضميرية، عثمان جمعة. (2013م). الفكر العلمي في الإسلام. مجلة الدليل. الرابطة المحمدية للعلماء. المغرب. المجلد 1. عدد1. 59 - 88.

ـ طائفة من المتخصصين. (1975م). دور الجامعات في عالم متغير. ترجمة: عبد العزيز سليمان ود. إبراهيم مطاوع. القاهرة. دار نهضة مصر.

ـ طوقان، قدري حافظ. (1990م). علماء العرب وما أعطوه للحضارة. منشورات الفاخرية. الرياض ـ المملكة العربية السعودية. ودار الكتاب العربي. بيروت ـ لبنان.

ـ عبد الحميد، محسن. (1996م). تجديد الفكر الإسلامي. ط1. المعهد العالمي للفكر الإسلامي. هيرندن. فرجينيا. الولايات المتحدة الأمريكية.

ـ عبد الرحيم، عبد المجيد. (1979م). مدخل إلى الفلسفة بنظرة اجتماعية. ط1. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة.

ـ العثماني، بلال. (2021م). منطلقات منهج البحث العلمي في التراث الإسلامي. المجلة الدولية لنشر البحوث والدراسات. الرباط ـ المملكة المغربية. مجلد 2. العدد الثامن عشر. 397 ـ 412.

ـ عطاري، عارف. (2008م). الإدارة المدرسية مقدمات لمنظور إسلامي. ط1. كتاب الأمة رقم (123). وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. الدوحة ـ قطر.

ـ عكيوي، عبد الكريم. (2009م). معالم التكامل المعرفي عند المحدثين. ضمن مجموعة مؤلفين. التكامل المعرفي بين العلوم الإسلامية الأسس النظرية والشروط التطبيقية. ندوة دولية برحاب مؤسسة دار الحديث الحسنية. بتاريخ 11 ـ 12 فبراير 2009م. جامعة القرويين. المغرب.

ـ عليّ، سعيد إسماعيل. (2010م). مدخل إلى التربية الإسلامية. ط1. دار الفكر. القاهرة.

ـــ ////////////////. (2021م). التجديد والإصلاح في الفكر التربوي الإسلامي. ط1. تحرير د: هاني إسماعيل رمضان. المنتدى العربي التركي للتبادل اللغوي.

ـــ //////////////////. (2011م). اتجاهات الفكر التربوي الإسلامي. ط1. دار الفكر العربي. القاهرة مصر.

ـ عليّ، محمد صديق الزين. (2011م). أصول البحث العلمي في القرآن الكريم. ط1. دار الجنان للنشر والتوزيع ـ عمان ـ الأردن. 1 ـ 34.

ـ العلواني، رقية طه جابر. (2008م). تدبر القرآن بين النظرية والتطبيق. ط4.

ـ العلواني، طه جابر. (1992م). إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات. ط3. ورقة عمل. المعهد العالمي للفكر الإسلامي. هيرندن ـ فرجينيا. الولايات المتحدة الأمريكية.

ـ ////////////////. (1989م). الأزمة الفكرية المعاصرة. ط1. المعهد العالمي للفكر الإسلامي. الولايات المتحدة الأمريكية.

ـ عمر، أحمد مختار عبد الحميد. (2008م). معجم اللغة العربية المعاصرة. ط1. عالم الكتب. القاهرة ـ مصر.

ـ عوض، محمد مؤنس. (2011م). في رحاب الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى. ط1. دار العالم العربي. القاهرة ـ مصر.

ـ العيسوي، عبد الفتاح محمد وعبد الرحمن محمد. (1997م). مناهج البحث العلمي في الفكر الإسلامي والفكر الحديث. دار الراتب الجامية. مصر.

ـ غازي، علي عفيفي علي. (2012م). تاريخ تطور الفكر التربوي الإسلامي. المنتدى الإسلامي. مجلة البيان. العدد 302. أغسطس.

ـ الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. (1957م). إحياء علوم الدين. دار إحياء الكتب العربية. القاهرة. مصر.

ـ الغزالي، محمد. (1993م). ليس من الإسلام. مكتبة وهبة. القاهرة ـ مصر. 1993م.

ـ فروخ، عمر. (1970م). تاريخ العلوم عند العرب. دار العلم للملايين. بيروت ـ لبنان.

ـ فلية والزكي، فاروق عبده وأحمد عبد الفتاح. (2004م). معجم مصطلحات التربية لغة واصطلاحا. دار الوفاء. الإسكندرية ـ مصر.

ـ القاسمي، محمد جمال الدين. (2004م). قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث. ط1. قدم له عبد القادر الأرناؤوط. حققه وعلق عليه مصطفى شيخ مصطفى. مؤسسة الرسالة ناشرون. بيروت ـ لبنان.

ـ قنديلجي، عامر إبراهيم. (2019م). منهجية البحث العلمي. دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع. عمان ـ الأردن.

ـ قنصوه، صلاح. (2003م). فلسفة العلم. الهيئة العامة للكتاب. مكتبة الأسرة. القاهرة. مصر.

ـ الكيلاني، ماجد عرسان. (1998م). فلسفة التربية الإسلامية. دراسة مقارنة بين فلسفة التربية الإسلامية والفلسفات التربوية المعاصرة. مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. لبنان.

ـ المبارك، محمد بن عبد القادر. (1978م). الإسلام والفكر العلمي. ط1. دار الفكر. بيروت ـ لبنان.

ـ مجموعة مؤلفين. (1995م). المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية والتربوية. بحوث ومناقشات المؤتمر العالمي الرابع للفكر الإسلامي. ط2. الدار العالمية للكتاب الإسلامي. الرياض، المملكة العربية السعودية.

ـ محمود، زكي نجيب. (2022م). جابر بن حيان، مؤسسة هنداوي. المملكة المتحدة.

ــ مدكور، علي أحمد. (2001م). مناهج التربية أسسها وتطبيقاتها. ط1. دار الفكر العربي. القاهرة. جمهورية مصر العربية.

ــ مراد، بركات محمد. (1988م). أسس وأخلاقيات البحث العلمي عند البيروني. مجلة المسلم المعاصر. العدد 51 / 52. بيروت - لبنان. 241 - 278.

ـ المطيري، منصور زويد. (1992). الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع الدواعي والإمكان. ط1. كتاب الأمة رقم (33). إدارة البحوث والدراسات الإسلامية قطر.

ـ المستيري، محمد. (2015م). جدل التأصيل والمعاصرة في الفكر الإسلامي. موقع مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث - المملكة المغربية. أكتوبر 2015م. https://mominoun.com/events

ـ مصطفى، نيفين عبد الخالق. (1992م). مدخل لصياغة مفهوم التوجيه الإسلامي للعلوم. مجلة المسلم المعاصر. العدد 64. بيروت – لبنان. 9- 51.

ــ الملقى، هيام. (2001م). التجارب الروحية بين التأصيل الإسلامي والاغتراب الثقافي. تجديد الصلة بالله. ط1، دار الفكر المعاصر. بيروت ـ لبنان.

ــ ملكاوي، فتحي حسن. (2016م). منهجية التكامل المعرفي، مقدمات في المنهجية الإسلامية. ط2. المعهد العالمي للفكر الإسلامي. هرندن ـ فرجينيا ـ الولايات المتحدة الأمريكية.

ــ منتصر، عبد الحليم. (2012م). تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه. الهيئة المصرية للكتاب. القاهرة ـ مصر.

ــ النجار، زغلول راغب. (1988م). قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر. ط1. كتاب الأمة رقم (20). وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. قطر.

ــ //////////////. (1977م). أزمة التعليم المعاصر وحلولها الإسلامية (1). مجلة المسلم المعاصر. العدد 11. بيروت - لبنان. 137 - 188.

ـ النجار، عبد المجيد عمر. (2006م). الشهود الحضاري للأمة الإسلامية. عوامل الشهود الحضاري (2). ط2. دار الغرب الإسلامي.

ــ الندوي، أبو الحسن. (1988م). دور الإسلام الإصلاحي الجذري في مجال العلوم الإنسانية. ط1. دار الصحوة للنشر. القاهرة.

ــ النشار، علي سامي. (1984م). مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي. دار النهضة العربية للطباعة والنشر. بيروت ـ لبنان.

ـ همام، طلعت. (1988م). مناهج البحث العلمي. ط3. مؤسسة الرسالة. بيروت ـ لبنان.

ـ هوفمان، مراد. (2011م). خواء الذات والأدمغة المستعمرة. ط2. ترجمة: عادل المعلم ونشأت جعفر. مكتبة دار الشروق الدولية. مصر.

ـ اليازجي، كمال. (1954م). معالم الفكر العربي. وهو عرض مجمل تراث العرب الفكري في إبان نهضتهم العلمية. ط1. دار العلم للملايين. بيروت ـ لبنان.